

نهار خارجي

محمد عبد الرحمن

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

Fiction. قصص

نهار خارجي

«مجموعة قصصية»



محمد عبد الرحمن



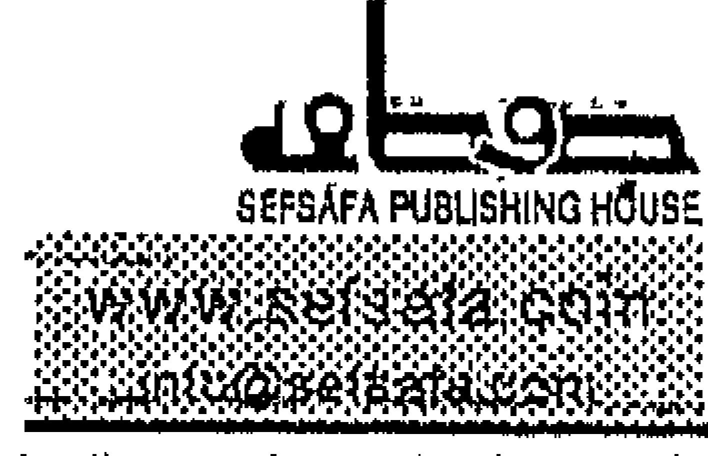
محمد عبد الرحمن/ من مواليد الإسكندرية العام 1984 تخرج في كلية الصيدلة جامعة الاسكندرية 2006، شارك بمجموعة من أعماله في بعض المنتديات الأدبية؛ له رواية لم تنشر بعد بعنوان "عن قبض الريح"، و "نهار خارجي" هي مجموعته القصصية الاولى.

مجموعة قصصية
Short Stories
....

نهار خارجي
محمد عبد الرحمن
الطبعة الأولى مارس 2011
رقم الإيداع:

الناشر
محمد البعلي

المستشار الفني
أحمد الزغبي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
٥ ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

نهار خارجي

الإهداء...

منكِ النور.. وبكِ الآية.. إليكَ..

محمد


سین!

"ألقاك أين الآن...

والمنفى بعيد...

والبلاد تناقلتك؟؟"

شاعر يرثي حلمه.

خالد:

لست بالأعمى...

ولا بخفيف الظل... السمير والأنيس... وخير جليس...

بل إنني - وفقط - ضعيف البصر إلى حدٍ بعيد... جدًا... وإلى ذاك الحد... فأنا بغيض وكريه...

ومنفّر.

أنا لست بأحد الشيوخ...

ولا أمتلك لهجتهم المميزة... صحيح أني كنت أعمل في مدرسة أزهرية...

لكنني مجرد أستاذ للدراسات الاجتماعية.. وكنت حين أقف لألقي درسي... أتحدث بصعوبة شديدة؛ ليس لعيبٍ بلساني ومنطقي...

بل لأنني كنت أرى الوجوم وعدم الفهم لأيٍ مما أشرحه قد ارتسم بأعين التلاميذ من أمامي...

ارتسم في قبحٍ طاغٍ ووقاحة جمة...

وتحدٍ سافرٍ.

عملت في تلك المدرسة "الحكمة" لعشر سنوات - منذ تخرجي تقريبًا...

ومع هذا؛ فإنني لم أكوّن بها أي صداقات... رغم أني أحببت الجميع... نوعًا ما... وكنت أخًا لهم...

وهم... بادلوني نفس الأمر... لكن من مسافة معينة... لم تقصُر يومًا ما...

أبدًا.

أذكر أنني اخترت مكانًا منزويًا بحجرة المدرسين... بجانب النافذة... كنت أقضي جُلّ وقتي قبل وبعد الحصص...

الحصص عديمة الجدوى والفائدة... جالسًا أنظر إلى لا شيء... بينما أحطم أصابع الطبشور...

واحدًا.. تلو الآخر... حتى يدق الجرس...

ويأذن لي بالرحيل...

وأذكر أيضًا... أنني مع كل ذهابٍ وإياب...

كنت أتساءل عن أهمية ما أفعله... حيثيته... وجدواه... ولا أستقر على رأي قط...

ويسخطني ذلك بشدة ثم أعود لأبتسم في داخلي... فأفْضل ما أقدمه هو عدم الاستقرار...

لا الجغرافيا تعرف الجمود...

ولا التاريخ براسخ.

كلٌّ لا يلبث أن يتجدد... حتى يتبدد.

خالد ثابت...

دائمًا ما يوقظه الضجيج والهزات اللذان يحدثهما سريان أول عربة ترام تطأ شارع عثمان أباظة في طريقها إلى محرم بك... أو كرموز...

لكنه لا ينهض عن فراشه إلا بعد أن تصل الأخرى القادمة من شارع الخديو... إلى حيث هو... قبل أن تنحرف إلى باب الكراستة..

وتنتهي عند رأس التين...

يكون هذا بعد عشر دقائق تقريبًا.

وبعد عشر دقائق إضافية... يخرج من دورة المياه... يجفف وجهه وشعره...

وتنحسر المنشفة عن ذات النظرة الشغوفة... يدقق أمامه... يحاول التحقق من قسماته وملامحه... لكنه يفشل...

بصره يذبل كل يوم عما قبله...

وبات لا يرى نفسه مطلقًا.

عشر دقائق أخرى... ويكون قد أعد فنجان قهوته السادة... وأشعل سيجارته...

وجلس إلى جانب من البلكونة... يحاول ألا ينتبه إلى ما يدور في الشارع من أحاديث صباحية...

وألا يتابع حركة الباعة المتجولين... ولا حتى راديو المقهى الذي يتجه مؤشره دائمًا نحو إذاعة الشرق الأوسط.

يبقى هنالك حتى تسيطر الشمس على المكان بأكمله... فينسحب للداخل... ولا يعود إلا بعد أن ينحسر نفوذها من جديد.

يكون قد راجع في ذلك الوقت... ما سجله بالأمس... وتأكد منه...

يحضر معه المسجل... ويعاود التدوين...

والرسم.

منذ صغره وهو يميل إلى التعبير بالخطوط والألوان... كان يحاكي الصور والأشكال... بطريقته الخاصة.

وكان له أستاذ قال له إن عليه أن يستمر في هذا الاتجاه؛ فأعماله توحي بأن لديه شيئًا ما... ليفضي به...

لم يتضح بعد...

لم يتحقق من موهبته أبدًا... ولهذا لم يدرس الفنون.

وطوال فترة عمله كان عليه الالتزام بالبعد عن هوايته القديمة...

علّ الجرح يندمل...

لكنه شعاع الضوء... لم يدفئ ولم يكن كافيًا للرؤية...

ومع هذا؛ فقد اجتاز الغيوم مجددًا... ورغم ما كان بعد الحادث...

فإنه تحايل على الموقف.

كانت صفحته البيضاء... هي ذهنه المتقد انفلاتًا من التبلد...

وألوانه... هي آماله... وآلامه.

ولذا؛

فقد انحصرت في الأبيض والأسود.

منحة:

عنيدة أنا... وإلى أبعد مدى...

رغم كوني ساذجة غرة... وارثة لعقلية صعيدية بحتة...

بيئتي وأهلي هناك في الجنوب العالي... لكنها الرحلة...

قد نسجت فيها حلمًا من الواقع...

وجعلت من الحلم... واقعًا.

تستفزني الأشياء منذ أمد... لكن أفاعيله لم تكن لترقى إلى تلك الدرجة... إلا أنني مؤخرًا... قد بت مهتمة... على نحو ما... بدوافعه...

ذلك الجار المُبعَد... المبتعد...

رغم كونه قريبًا جدًا.

استقيت معلوماتي من عمتي... تلك التي باتت تكفلني... وصرت أعيش في كنفها... قالت إنه لم يتزوج...

أمه وأبوه - رحمهما الله - كانا من أهل الكرم والأخلاق...

وليس له من أقرباء سوى أخته الكبرى، تأتيه من "غيط العنب" مرتين في الأسبوع... تعدّ طعامه وترتب المنزل... منزل أبيها...

وتغسل ثيابه وتكويها... لا تستغرق وقتًا طويلًا حتى تنصرف لبيت زوجها من جديد.

قالت أيضًا إنه لم يتغيّر كثيرًا بعد أن صدمته السيارة وهو ينقذ ذلك الطفل يومها، الذي كاد يهلك على الطريق...

"عند ناصية سيدي المنير"، وإنه لم يمعن في عزلته بعد أن خفت نور البصر...

بل إنه من يومه وهو وحيد بلا أصدقاء "برّاوي" له نأى الافتراس والتوحش... وإن كثر معارفه ومن يعرفونه...

فقط... قلّ خروجه إلى حدٍ بعيد...

لكنه لم ينعدم...

ففي أوقاتٍ كانت تحضر أخته ولا تجده، وتنتظر عودته في خوفٍ وشغف...

إذ المفترض أنه لا يخرج أبدًا بمفرده..

وحتى معاشه هي التي تحضره له.

قالت عمتي إنها في أوقات أخرى كانت تراه جالسًا في بلكونته...

مرتديًا ثياب خروجه كعادته... ويدخن... وفجأة يهب واقفًا...

وقد بدت عليه علامات الاضطراب والتأثر، ثم يختفي داخل البيت...

ولا تبصره إلا مندفعًا في الطريق... كأنه لا يأبه لأيٍ من العوائق يحيط به... وكأنه مدفوع دفعًا إلى ما هو فيه.

أردفت عمتي وهى تخفي ابتسامة خبيثة...

إنها لم تكن تتمنى لي أن أرتبط بمثله وقت أن كان يصلح للارتباط...

فقاطعت دعائها لي... بابن الحلال... متعمدة إثارتها والنيل منها لا أكثر...

وأنا أتساءل:

وهل هو الآن... لا يصلح لذلك؟!

منحة نوار...

لما تطل من شرفتها...

تدرك الحياة في يومها قيمة ومغزى الضياء... بعد العتمة الطويلة...

سنا ثغرها البسّام... والنظرة الألقة... أنفاسها العطرة... وسمرة التقاسيم العذبة...

يجعلون جميع ما حولها ينتشي في سعادةٍ جمة وابتهاجٍ بالغ...

يذوب فيها...

ومنها.

يصحب طلوعَها فجرٌ جديد... فجرٌ سعيد...

تخرج والنسائم المشتاقة... تمرح وعصافير جنتها..."زوج الكناري"..

الفرح بفيض الحنان...

الممتع... المستمتع.

بعد المطعم والمشرب... والمداعبات الطفولية... والضحكات تروي القلوب العطشى... تسقي أزهارها... في ود وحميمة تتلمس الأوراق...

والغصون... "الياسمين"... تعشق منظره ومخبره...

أوراقه الغضة النضرة...

وعطره الأخاذ...

المثير.

تحضر الشمس إذن وهي ساطعة... في أوج توهجها...

لذا؛ فإنها باستدارتها البرتقالية المتصابية تتوارى خلف سحابات أول النهار... خجلًا من الحسن الجنوبي... البديع...

ذي الرونق والبهاء...

وعنفوان البداوة.

قد تريح صدرها العامر البض إلى حافة السور... وتغني...

تهمس في توقٍ وحنين...

وهيام...

وقد تجلس لتقرأ قليلًا... بعد أن تؤدي صلاة فرضها... وترتدي ملابسها... وتتهيأ للخروج إلى كليتها...

في بشر وطلاقة.

ويكون جميع ذلك قبل أن تمر بالشارع عربة ترام واحدة...

وتكون هي على غير علمٍ ولا هدى بأنها أصبحت توقظ جارها...

مبكرًا عما اعتاد...

وعلى غير ما اعتاد...

وأنها قد أصابته بالقلق وألحقت برأسه صداعًا يوميًا شديدًا...

وأنها قد أورثته ضيقًا بها..

وكراهة لها.

خالد: منحة؟

أمضيت حياتي وأنا أعزب... لكنني لم أكن بمعزل تمامًا عن الجنس الآخر.. شاهدت عديدًا من الشابات الحسان...

رأيت فيهن زوجات مثاليات... لكنني لم أتقدم نحو أي منهن...

فبعد طول تفكير... وجدت أني أعافهن... فابتعدت...

لكن إلى حدٍ ما... فأنا لم أكن بقديس...

صحيحٌ أني اعتنقت أفكارًا نبيلة منذ مطلع شبابي...

وصحيح أني كان لي المبادئ والقيم التي أؤمن بها...

إلا أن ذلك لم يمنعني من أشياء كثيرة... أعلم أنها مخجلة ومشينة...

كأن أتلصص على جاراتنا.. الجميلات منهن... في لحظات التكشّف وجلاء الأسرار والحميمية النادرة...

وكألا يرقب بصري ممن تقف إزائي سوى ما يفتن ويلهب الرغبة فيها...

قبة ثوب نسيت مفتوحة... ذيل قميص حُسر لأعلى...

حركةٍ غير مقصودة... وجلسةٍ غير منتبهة.

أرقني ذلك طويلًا... فكان لا بد من أن يدفع المبعد نحو الاقتراب...

فلم أتردد كثيرًا في ذلك اليوم...

كانت والدة أحد تلاميذي... الذي لم يختلف كثيرًا عن بقيتهم في ضعف المستوى... وتكرار الرسوب...

ومع هذا؛ فأمه أتتني تبكي... بساطة الحال وضيق ذات اليد... والولد الذي ـ على العكس من أخويه اللذين يكبرانه ـ خاب أملها وأبيه المسكين فيه...

لم أجد ما أعلق به... فأنا أعلم جيدًا حقيقة ما أقدمه...

ومع هذا؛ وجدتني مضطرًا إلى عرض المساعدة...

بلا أي مقابل... فأنا عمومًا لا أعطي دروسًا خصوصية...

وذهبت إلى بيتهم مراتٍ قليلة... لأشرح للولد ـ الذي لم يكن ليفهم شيئًا ـ جميع ما لا يفهمه...

لما وقفت بنفسي على فقرهم الشديد وبؤس الحال...

قررت أن أجتهد كثيرًا في تعليم ذلك الولد...

وشاركت أمه الحلم بأنه إذا نجح في دراسته قد يصبح ذا شأنٍ يومًا ما...

هكذا قلت لها لما تناقشت معها حول جدوى الأمر...

طلبت منها أن تطمئن... وأخبرتها بأن مستوى ولدها يتحسن...

دعت لي وهي تضع الشاي أمامي...

وجلست تنتظر معي حضور الولد لتلقي الدرس.

مضى وقتٌ طويل... وكنا بمفردنا في البيت...

وانقطع حديثنا...

شعرت هي بتململي... وحرجي من الموقف... فاستأذنت في الخروج لإحضاره... وتركتني وقتًا آخر... ثم عادت بمفردها وهي تبكي بشدة...

وتشتكي ما يفعله بها ذلك العابث الشقي... الذي لا تعرف أين ذهب وأصدقاء السوء برفقته...

كنت جامدًا في مكاني... أواسيها بكلمات فارغة...

حتى اشتد بها البكاء... وراحت تنحب وقد انقطعت أنفاسها أو كادت...

اقتربت منها... أطيب خاطرها...

طال بقاء يدي فوق كتفها... لما لاحظت أنها جميلة للغاية... شديدة الفتنة... والإثارة...

انتبهت من جديدٍ أن أحدًا سوانا غير موجود بالبيت...

واقتربت أكثر...

وهي...

كانت تعلم يقينًا أن الغائبين لن يعودوا قبل حين.

لم تمنعني... ولم تمتنع...

اقتربت هي الأخرى...

فكان بيننا ما يكون بين رجلٍ شغوف... وامرأة ولهى.

تذكرت ذلك هذا الصباح... وشعرت بالحرج والضيق...

فبعد أن انصرفت عنها لم أعد مطلقًا... ولم أرها سوى مرة أخرى... بعد أكثر من سنة... كان ولدها قد فُصل من المدرسة لكثرة هروبه...

التقيتها مصادفة... في الفناء... وتصرفت معها بتحفظ لم تنكره علي...

فتعاملت هي معي بصفتي مدرس ابنها وفقط.

تذكرت ذلك وأنا مدرك أنه... لم يكن فِعلي هذا قد تكرر مع امرأة بعدها...

وصحيح أن مكانتها كانت في طليعة الذكريات... الشبقة... تحمل النشوة وطعم الفرح...

إلا أن بريقًا ما كان قد انطفأ.

ويؤرقني الأمر إلى الآن... لكن اليقين انعقد على نحوٍ مختلف...

خلصت منه إلى ما تبدى لي في لوحتي الأخيرة...

"أفق"..

تلك اللوحة التي شرعت في بدئها... قبل أن تظهر جارتي الجديدة...

المزعجة تلك...

كنت أفكر في الخطوط... الخطوط تتماوج بالأبيض والأسود...

تخلق نوعًا من الفسحة والتحرر... تستقيم حينًا فتحد رجلًا وامرأة انبسطا كل تجاه إلفه... بلا تقاسيم تفتن... ولا تضاريس تثير..

ولا رغبة أو شغف إلا فيما اتضح أنه قد كان...

الدفء... والوصال.

منحة: خالد!

هذا الشخص مختلٌ لا محالة...!

وإلا لما افتقد أبسط قواعد وأصول التعامل... وبخاصة مع أنثى مثلي...

أطلع لأجده فألقي عليه التحية... ليردها متململًا... ويتصرف عني..

بلا أي استئذان ولا أدنى اعتبارٍ أو تقدير...

ثم يتعمد الخروج علي في مرات أخرى... فيتصرف كأنني غير موجودة إلى جواره... رغم تعمدي إظهار وجودي...

لا يتحدث إلي مطلقًا... حتى بالتحية الواجبة... وأكثر من هذا؛ أنه يتناسى قصر المسافة بيننا... ويدخن بشراهة...

وينفث دخانه البغيض ناحية عصافيري وأزهاري...

ولا يأبه إلى كوني أسعل بشدة ويضيق صدري من فعله المقيت.

أنظر إليه... فيتشاغل بالمسجل من أمامه... ينقر عليه بأصابعه مراتٍ طويلة... فأعود إلى متابعة الطريق... وألتفت لأجده معلقًا بصره بي...

يرمقني بشدة...

فأشك في كونه ضعيف البصر...

وتراودني أفكار كثيرة... وغريبة.... أنتبه منها إلى كونه قد تحوّل عني وانفلت إلى داخل بيته من جديد...

أشعر برفضه لي حاضرًا من حوله... كمجالٍ مغناطيسي نافر...

ومنفّر.

لذلك؛ لم أستغرب كونه اختفى عن ناظري لعدة أيام... تصورت أنه يخرج في أوقات عدم تواجدي... وساعد على ذلك أن المسجِل الخاص به في مكانه فوق المنضدة الصغيرة... كما هو معتاد في أوقات تردده على البلكونة.

حتى كان أن نزل المطر... كنا في آخر الصيف... والأجواء بدأت في التقلب... فتجمّعت بعض السحب في نهاية اليوم...

وكانت غزارة الهطول...

انتبهت في تلك اللحظة إلى أن المطر سوف يتلف المسجل... ولهذا أسرعت إلى عصا زوج عمتي الراحل... أحضرتها... ووقفت في أقرب نقطة منه... على أطراف أصابعي... ومن المسافة الفاصلة بين الجانبين... استطعت أن أحرك المسجل ناحيتي...

حتى أصبح في متناول يدي...

أمسكته...

ومسحت بثيابي ما اعتلاه من قطرات الماء...

ودخلت به.

وبينما كنت أنشفه من الداخل... وأتأكد من عدم وصول الماء خلاله... لاحظت كون شريط الكاسيت لا يحمل أي كتابة عليه...

استفزني الأمر كعادتي... ودفعني فضولي المقدس... إلى تشغيل الكاسيت... ذلك الذي يلازمه كظله...

كنت أفكر...

إلامَ يستمع ذلك الرجل الغريب...

الغامض...؟!

وفى الانتظار.

كان صمتٌ... وكان فراغ...

ثم أتاني صوته...

رقيقًا... رغم الأصداء تقاطعه وتتخلله...

عذبًا... رغم تردده... وخوفه.

منحة / خالد...

لم تنم منحة ليلتها تلك...

بقيت مسهدة...

تتفكر... في ذلك "الأفق" الذي امتد من أمامها...

بينما ظل يرن في أذنيها... رجع الكلمات الرشيقة...

المنمقة.

لم تقف على وصفٍ أو تصويرٍ مثل هذا من ذي قبل...

كانت مبهورة.

لما كان الصباح... كانت تنتظر خروجه في شغفٍ...

وشوق...

لكنه لم يظهر... ارتابت في الأمر...

ثم وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة من صعودها السلم...

وقبل الطرقة المواهجة لباب شقته...

تفكرت أن فضولها وحده ليس مسؤولًا عن الإتيان بها حيث هي الآن...

وعلى هذا النحو... لا الفضول... ولا حتى القلق الإنساني المبرر...

والمألوف.

مع صوت جرس الباب... سرت في بدنها رعدة...

لكنها تماسكت...

حتى فتح لها.

تأملت لوهلة... حضوره أمامها...

بنيانه القائم... بشرته الداكنة... شفاهه الغليظة وأنفه الأفطس...

شعره المجعد "بدأ المشيب يطعن في غرته"، وعيناه السوداوان...

بحر حائر في آخر ليله.

كان متجهمًا... تعلو وجهه علامات الإعياء والتعب... فقدمت نفسها... وفي عجالة واضطراب شرحت ما كان منها بالأمس...

وأعطته المسجل... وشريط الكاسيت خارجه... لم يعلّق...

وهمّت هي بالانصراف... لكنه دعاها إلى الجلوس...

وأصر.

دخلت بخطى وجلة...

وجلست إلى اقرب مقعد... وخلال اللحظات التي تركها ليحضر كوب عصير الليمون... تأمّلت المكان بعناية...

المكتبة الصغيرة المرتبة لم يمسسها بشرٌ منذ أمد...

والفرش والأثاث يبدو جليًا أن أحدًا لا يستخدمهما... حتى هو...

فأغلب الظن أنه يأنس إلى تلك الأريكة إلى جوارها...

وفقط... أثره جلي بها...

و لمّا عاد إليها جلس في صمت المستريح... إلا أنها قد أخذت باللوحات...

اللوحات التي شغلت أغلب مساحات الحوائط والزوايا من حولهما... لم تكن على درجة بالغة من الجودة ولا إتقان الحرفية...

لكنها كانت تملك سحرًا من نوعٍ خاص... يخطف الأبصار...

استحوذ عليها تمامًا...

كانت تحدق بإحداها القريبة منها...

موجٌ عارم... وسماءٌ غير صافية... وصخورٌ قليلة تجمعت عند الحافة...

حيث البقايا وما انعدمت قيمته.

وهي ترشف من العصير... الذي أخبرها أن أخته "المتسلطة" لمّا عادته في وعكته الأخيرة...

قررت إجباره على استهلاك محصول الليمون هذا بكامله قبل زيارتها القادمة... لاحظت توقيعه والتأريخ القديم...

التفتت إليها باندفاعها المعهود....

لتسأله عن عنوان اللوحة الغامضة.

– شط منسي...

قال لها ذلك في حدة بادية... ثم صمت قليلًا وهو يرقب المسجل وشريط الكاسيت على المنضدة...

وكان يودّ لو قال شيئًا... هكذا أحست هي فتحرّجت... لكنه عطس بقوة وبصورة كاريكاتورية غريبة للغاية...

فلم تتمالك نفسها...

ضحكت بشدة... ورغم تأثره البالغ... فإنه لم يتمالك نفسه هو الآخر...

شاركها الضحك...

حتى كادت أن تنقطع أنفاسهما.

خالد... ومنحة!

هل تواصلنا بالحديث... لا يكاد ينقطع بيننا في كل نحو واتجاه..

أم أن صمتنا يشملنا بوصال أعم وأكمل؟

والأجواء من حولنا... ملائمة..

أخبرته بحيرتي في الالتحاق بأي من أقسام كليتي... اللغة العربية... أم الجغرافيا لأصير زميلته يومًا ما...؟

وأخبرته أيضًا بأنني كنت غاية في الشقاوة وأنا طفلة...

وأنني حتى حين.... ظللت ألعب - وفقط - مع الصبية في الطريق...

أخبرته عن الزروع في بلدتنا...

والطيور في صحبتها...

وعن جريان النهر بأحضاننا... وكيف يحدنا الجبل...

من كل اتجاه باقٍ.

حدثتها عن الشوارع الطويلة آخر الليل... وافتقاد الصديق...

وعن مشاغبات الأحداث في النواحي المتفرقة "من كوم الناضورة وباب 14 وحتى سوق الجمعة وأول العناني"...

وعن الضباب المصاحب لأول النهار.

حدثتها عما لم أتعلمه من التعليم...

وعن الحياة... تلك التي لم أحيها.

حدثتها عما لا تعرفه عني عمتها كي تقصّه عليها... وتستمر في تحذيرها مني...

حدثتها عما لم أكن لأعرفه قبلها عن نفسي.

كنا طرفي نقيض في أغلب مناقشات أفكار اللوحات الجديدة... التي قررنا أن نضمها إلى الأخرى القديمة... ونجعل منها كتابًا...

سمّته هي "س!".. كنت أنا التساؤل المرير.. وكانت هي الإجابة الشافية..

ورغم أننا كنا لا نخلص لرأي سواء...

فإنها كانت تستمتع كثيرًا بما أمليه عليها من وصف ورسم...

كذلك هو...

كان يفرحه كوني أستوقفه طويلًا أستنكر غموض أيٍ من تصوراته...

وأعترض على سوداويتها... أو أصرّ على تعديل لمحةٍ ما في سياق ما يطرحه...

ويسترسل فيه.

لكننا اكتشفنا كوننا طرقنا أبواب الحديث حول ما قد مضى...

وما قد يأتي...

دون أن نلتفت كثيرًا إلى ما يكون في لحظتنا الحالية.

هل لأننا بتنا على يقين من أننا نصنعها معًا...؟

وفى هذا الكفاية والرضا.

كانت تهتم بأصغر وأدق أشيائي... تابعت أموري كلها...

وتحملت المسؤولية في غير إلزام مني...

لو أبصرت بجلاء لوقفت على كم الفرح الذي غمر أركان بيتي...

وفاض على أثاثه وفرشه...

حتى احتواه.

وكنت سعيدة بترحابه... وهنائه بجواري... كالأطفال كان وأنا أهيئه للخروج معي... كنت قد حدثته أنني لا أعرف الكثير عن مناطق الإسكندرية... الشهيرة الجميلة...

لا أعرف سوى أسمائها التي قيلت لي من دون أن أزورها... فضحك وقال إنه مثلي...

رغم ضيقه بالبقاء في البيت وكثرة خروجه منه...

لم يتح الفرصة لنفسه أن يزور تلك المناطق.

وعزمنا على اكتشاف ما نجهله... معًا.

وهى تأخذ به للباب... استوقفها... وطلب منها السماح له بسؤال...

وابتسمت وقد أعطته ما طلب...

كان ما يودّ أن يعرفه... هو: هل هي تشعر بالاطمئنان له...

والأمان معه...

والراحة؟

وهو على ما هو عليه من بؤس وشقاء... يهيم فيه بسخطه وتمرده..

وعنائه المستديم.

لم تجب... فقط... رفعت يده إلى وجهها...

تعلم أنه يرى ما ارتسم بملامحها وتقاسيمها من أجله... إن كان بالبصر ضعفٌ ما...

فعين القلب لا تخطئ ولا تنكر بيانًا...

وهو يمرر راحته فوق جبينها... قوس الحواجب... والرموش الطويلة...

وجنتيها... "اللتين قد توردتا" والشفاه... "التي بدأت تختلج"..

كان وجلًا.. حتى لمس طبع الحسن...

فانتشى...

واستأنف المسير.

وهما بمحاذاة خط الترام... أشار إلى أعلى عساها تنتبه...

فلقد ذكرها وهو يبتسم بأنهما نسيا المسجل في البلكونة...

والجو حتمًا سيمطر... ذلك فعل الحقد النبيل لزوج عصافيرها الحبيس دونهما... حتى ياسمينتها تحسده على الخروج معها...

هكذا همس بأذنها في عذوبة وجمال.

وهي...

شردت قليلًا... تفكرت فيما يحدث...

لا تدرك له أي معنى...

أحيانًا يفزعها ما وقفت عليه منه...

أحيانًا أخرى تغرق في حيرة غير متناهية...

تود لو أنه لم يجعلها تعرفه هكذا...

وتخبر أمره...

لم يكشف لها حقيقته كما يراها...

كانت تود لو رأته لا بعينه وإنما بعينيها هي...

عين العاشقة...

نعم...

فهي قد أحبته...

وهو أيضًا قد أحبها...

وإذا كان من ثمة سؤال...

فالإجابة حاضرة...

يكفيها أنها سوف تجعله يحب حبها له...

تمامًا كما سوف تحب هي حبه لها.

****

فجر..

صوت الأذان...؟!

تقريبًا...

فكأنما تتداخل الأصوات به.. الرخيم العذب.. والأجش.. المستنكر.. والمؤدي ـ وفقط...

والنائم والمتثائب والمتظاهر والمتجاهل...

المتجاهل...

صحا من فوره... كان يجلس إلى منضدة... بجانب مدخل المقهى.

كان يشعر بصداعٍ شديد... وألمٍ أشد في عينيه...

وهو يفركهما... حاول أن يستوعب أين يكون...

لم يفهم...

لم يدرك كنهه... ولا الذي أتى به حيث هو الآن؟؟

الطريق من أمامه شبه خالٍ إلا من عرباتٍ تنطلق بسرعة مفرطة...

وكلابٍ ضالة لا صاحب لها...

وأكوام القمامة.

رفع رأسه إلى أعلى باب المقهى... واللوحة المدون عليها بخط رقعة مميز...

المحطة...

بورصة المحطة.

لما ارتد بصره إلى الأرض... كانت مياه النظافة تسيل جارفة في طريقها جميع ما اختلط في الممر.. من فضلات... وأوساخ عالقة.

رفع رأسه ثانية ليبصر حلكة المساء... قبل أن تغيب...

ليس غرامًا بها وإنما من دون أي سببٍ يذكر.

لما طرق بيده المنضدة طرقات متتابعة ليغالب إحساسه بالصداع..

أحسّ بوجود أشياء إلى جواره..

هي أشياؤه حتمًا...

فهي قد وضعت ناحيته... ولا اثر لأحد يجلس جواره...

ولا أحد غيره وآخر نائمٌ بالداخل..

أو هكذا خُيل إليه كونه يدعي...

حيث كان في مكانه يبدو كمن يرقب مجلس صاحب المقهى الفارغ أسفل صورته غير واضحة المعالم من بعيد...

وكان هناك عاملان منهمكان في عملهما إلى حدٍ أبعد.

لم يسترح لمجمل غموض مشهده..

بدا له مدعي السبات هذا كأنه في أتم يقظته..

وبدا على غير اتفاق مع محيطه..

كأنه غير مرتاحٍ في موضعه..

نظراته الخاطفة التي لم تظهر معها حقيقة لون عينيه..

كانت تبدي حقدًا كامنًا تجاه..

الكرسي..

وصاحبه..

الذي لا يجرؤ أحد - على ما يبدو - من أن يقترب..

منه.

والعاملان...

كانا كأنهما مسخران لما فرغا إليه...

لم يحدد موقفه منهما..

وإن استراح..

وأنس لهما.

لما دنا منه أحدهما...

سأله في تردد: منذ متى وهو نائم؟...

فأجابه بنوع من التعاطف:

- لا أعلم!

المعلم أخبر زميلي بأن أحدًا لا يمكنه أن يوقظك... ولو ظللت ألف سنة مكانك...

وزميلي أخبرني محذرًا لما حضرت بعد العشاء...

كان المطلوب منا أن نتابعك..

وفقط.

لم يجد ما يقوله له...

أو بالأحرى ما يعرفه منه... فهو على ما يبدو لا يعرف شيئًا مطلقًا...

فكر أن يسأل الآخر...

لكنه عدل عن ذلك...

لو كان لديه المزيد لأخبر به صاحبه...

السر إذن عند رب عملهما.

السر؟؟

أي سر؟؟

ما الذي يدعوه إلى استخدام تلك المرادفة بخاصة من دون غيرها...؟؟

هراء..!

من جديدٍ راح يعبث بما فوق المنضدة...

كان ذلك كتابًا... وآخر أصغر منه حجمًا... وميدالية على شكل فرس يثب...

وبها مفتاحٌ أوحد.

تأمّل علي ما وصله من نورٍ خافت... عناوين الكتب

كان الكبير له اسم يليق به...

كتب بالأحمر العريض ليقطع سواد الغلاف الغطيس.

"الإنسان...

إبحار على غير هدى في الزمان والمكان...

ومن حولهما".

لم يفهم... ولم يستنكر ما لم يفهمه... لبساطة كونه لم يخبره.

الكتاب الصغير ذو الغلاف الأبيض دُوِّن أدناه بخط نسخ...

أسود رقيق...

رواية...

وفقط...

لم تحمل اسمًا حتى بداخلها...

رغم أنه لما قلّب صفحاتها تعثر في أحداثها منذ مبتداها...

شعر بنوع من الكراهة..

واشتد صداعه؛ فكاد يفتك برأسه...

من دون مقدمات..

طلب شايًا..

بصوتٍ عالٍ كأنه ينادى النادل خلال أوج صخب الظهيرة.

وبينما أحضر له طلبه في عجالة... حاول أن يتذكر..

منذ متى هو جالس في هذا المكان...

ومن أين أتى؟؟؟

وماذا كان يفعل ؟؟؟

باختصار..

حاول أن يتذكر من هو.. فلم يفلح...

وظن ما به عبثًا في غير محله...

أو ضربًا من الجنون....

لما أراد أن يدفع حساب الشاي لكونه يفكر في الانصراف بمجرد

حضور المعلم...

أخرج حافظة نقوده...

كانت عامرة...

وعليها أثر دماء...

نظر إليها في اضطراب بالغ.. ثم انتبه للأمر؛ ففتحها متجاهلًا ما أبصره وهو ينظر إلى الجرسون..

أخرج منها خمسة جنيهات انتوى أن يدسها في جيب الرجل..

إلا أنه عدل عن ذلك، واكتفى بأن ناوله جنيهًا ونصفًا...

وفقط.

لما انصرف عنه... عاد وفتح الحافظة..

ومرّ بسرعة من فوق الدماء بغلافها...

كان بالداخل بطاقة هوية...

تحمل صورة...

وإلى جوارها اسمٌ...

وعنوان.

هل هو يذكر أنه نودي من ذي قبل..

بأي اسم؟؟

وأين يكون عنوانه؟؟

جثم فوق صدره همٌ ثقيل...

والأسئلة الفتاكة تعصف بما تبقى من وجدانه، بعد أن تلاشت قدرته على الاستيعاب والتركيز...

من هو يا ترى؟؟

وماذا يفعل هنا؟؟

هل تلك الأشياء تخصه حقًا؟؟

لمن الدماء على الحافظة التي حتمًا هي له؟؟

وما علاقته بالمعلم... صاحب المقهى؟؟

أيكون العارف عنه كل شيء، الخابر لأمره من أوله لآخره؟؟؟

أم أنه إنسان كمساعديه كل ما يبحث عنه هو أداء عمله...

وتقديم العون إضافة تابعة له وفى أضيق الحدود؟؟

لا يذكر شيئًا قط...

رغم أن كل شيء باقٍ...

فإنه تلاشى بداخله...

وإذن... فليلحق به إلى العدم...

ولا مفر..!

صمت لبعض الوقت...

كأنه امتنع حتى عن التفكير... كالأرض التي تكف عن الدوران...

والبحر يفقد ماءه الدفاق...

وبين لفتة وأخرى...

كان النائم بآخر المقهى قد أضحى جالسًا إلى جواره..

فزِع للأمر..

لم يتوقعه ولم يلحظ كيف حدث!

لم يشعر سوى بالرجل الغامض الكريه يجلس أمامه ماسكًا كوب شايه الساخن بين يديه

وإن كان لم يحتسِ منه..

إلا أنه قال له بصوت ناعم أملس:

بإمكانك طلب آخر لك..

لكنه لم يتلق جوابًا..

فعاد بعد فترة صمت وقال ـ بينما ارتسمت بوجهه ابتسامة صفراء:

لست من هنا..

لم أرك من ذي قبل..

وأنا وإن كنت على حالي التي تراها...

فإنني أعتبر نفسي صاحب المكان..

لذا؛ عليّ التأكد من حقيقة أمرك..

فأنا لا أضمن كونك لن تستغل ضعف العاملين

ـ والدرج بلا صاحب ليحميه ـ

فتمتد يدك الآثمة..

إلى ما ليس لك!

إلى حصيلة المساء التي تئن بداخله..

تبحث عمن يأخذها لأحضانه..

ويرحل بها عن تلك الوحشة..

والكراهة!

لم يتلق منه أي رد مطلقًا..

لذا؛ عاد ليقول بلغة مغايرة..

محتدة..

وعنيفة:

لا تحاول أن تخبرني أنك لا تفكر في عمل إجرامي..

أي عمل إجرامي يا صديقي..

فالدماء...

الدماء..

تبدو صاخبة في عروقك..

أكثر من اللازم!

قال له ذلك وهو يشير بيده في الهواء..

ناحية خلفه؛ حيث حافظة النقود الملطخة..

بينما يرن في الأفق صدى نطقه للأحرف ذاتها..

ليصنع دويًا قابضًا..

منفرًا.

بدا أن العاملين قد انتبها للأمر..

وتابعاه:

فوقف هو وقد ترك كوب الشاي كما كان وانصرف من دون أن يزيد حرفًا آخر..

وعاد لنومه الذي كان.

ومع هذا؛ فلم تعلق بذهن محدثه أي من ملامحه..

تلاشت جميعها بانصرافه،

ونسي أنه كان يودّ لو أدرك لون عينيه؛ فلم يفلح.

ما عاد يذكر سوى كلماته..

كلماته وفقط.

وقر بداخله خوفٌ مقيت..

وارتاب كل ما حوله..

وحار فيه.

لم يأنس إلا لنجمات قليلة..

بُعثرت في طرف السماء.

لم يعلم ماذا دفعه حينئذٍ - وفقط - إلى الالتفات إلى صورة الرجل..

الرجل صاحب المقهى.

ثم عاد ليرقب المشهد الأعلى...

وما أن لمح الخيط الأبيض...

وأشعة برتقالية تكسر اسوداد قيد القبة السماوية لتهرب بالفرح والبهجة...

حتى هب واقفًا...

كمن حسم أمرًا عضالاً...

تنفسّ عبير الفجر الساحر...

وانتشى...

فرغم كل ما به من خواء؛

أحس بما هو أبقى.

طلب النادل...

الذي سأله - وقد لاحظ كونه سيهم بالانصراف:

ألن تنتظر قدوم المعلم...؟؟

فتجاهل سؤاله معتبرًا جملته الأخرى كافية...

وتجاهل - أيضًا - كون ذلك النائم في الركن القصي..

تكاد أذنه تعلو عن موضعها لتلتقف ما يصدر عنهما من حديثٍ هامس متثاقل...

وقال:

أبلغ الرجل تحياتي...

وبالغ شكري...

وهمّ بالانصراف..

فأتاه الصوت منبهًا من خلفه:

وأشياؤك؟؟

فعاد الخطوتين... وهو يتمتم: كدت أنسى ما لبثت أن أذكره...

ثم أخرج من جيبه الخلفي حافظة نقوده...

ووضعها بحزم في يد الرجل...

وقال:

سلمها معهم إلى المعلم... أمانة إلى أن يعود صاحبهم....

وانتظر ولم ينصرف...

تعلق بصره بالفرس الواثب عن إطار الميدالية المصمت...

ثم بدا وهو يفتش في ثيابه؛ ليتأكد من خلوها من أي أثر للدماء...

كأنه ينتظر سؤالًا...

لما أتاه اختفى

احتفى في لمح البصر.

سُئل:

ومن صاحبهم؟!...

فقال:

صورته واسمه بالداخل...

وأنا لا أعرفه مطلقًا...

ولم أره من ذي قبل...

نظر العامل مرتابًا إلى الدماء وقد جفّت بجلد الحافظة...

ثم فتحها...

ليجد صورة الرجل من أمامه...

من حضر ليذهب...

وإلى جوارها سجل الاسم...

بالكتابة الإلكترونية...

أعلى العنوان الواضح بجلاء:

يحيى

سالم عبد الحكيم.

****

أحلام سعيدة!

دائمًا ما يكون نومي هادئًا.. أنعم فيه بما يمكن تسميته القسط الوفير من الراحة والاستجمام...

أرتدي ملابسي.. وأضع رأسي على الوسادة.. وأغط بعمق..

ولا أنتبه لأي صوت بجواري، ولا تقتحم الأضواء عيني قط.

واليوم.. لم يكن ثمة شيء يُذكر.. يجعلني أتقلب هكذا في سريري.. وملء عيوني صحوٌ ويقظة.. وضيق..

كأنني خشيت أن أرى شيئًا ما في نومي.. وكأنني خشيت أن أغيب عن الوعي..

وأفقد إدراكي.

ليست المرة الأولى التي أقرأ فيها ملف قضية من هذا النوع، وبذاك الحجم الذي صاحبها من الصخب والضجة الإعلامية، وتعلّق الرأي العام بها..

ورثت عن أبي.. المستشار المخضرم... ذلك الذي ترأس كبريات المحاكم لدينا.. أن أحيد جميع ما يصلني عن أمر القضية إلا ملفها..عليّ - وفقط - التركيز فيه..

والعمل عليه.. حتى إن خرج من تحت يدي كان مستوفيًا جميع شروط وأدلة الاتهام.. خاضعًا لأحكام القانون.. لا ثغرة للتبرئة به مطلقًا.

رغم أنني لم أفتح باب التحقيق.. ولم أقم باستجواب المتهم.. أعتقد أنني قد كوّنت رأيًا نهائيًا حوله..

فبعد أن كُشف غموض الحادث، وألقي القبض على مرتكبه.. أتت اعترافاته بمحضر الشرطة واضحة صريحة وتفصيلية..

دليلًا قطعيًا يضمن لصاحبه إحالة أوراقه لمفتي الديار.

قال لي زميلٌ وصديق.. إنه لا يعلم كيف ستواتيني القدرة على النوم بعد الوقوف على أمره.

هو عم المجني عليها.. وردة..

ووردة كانت تلميذة في الابتدائية.. لم تتجاوز سني عمرها التسع إلى الآن..

وجدت جثتها عند أول مصرف صحي يصب في الملاحات الممتدة بالخط الموازي لمنطقة العجمي قبلي.. عند ما يسمى بطريق "أم زغيو".

حصر تقرير الطبيب الشرعي مدى التشوه الذي كانت عليه حالتها.. وحدد كون الوفاة تمت عن طريق الضغط على منطقة الرقبة إلى حد الاختناق..

وأنها تعرضت قبل ذلك للاغتصاب العنيف.. وتعرضت لضرب مبرح وتعذيب تبدو آثاره جلية بمدى النزف الحادث لها، والجروح في مقدمة الجبهة والأنف..

والعلامات بالذراعين والفخذين وأسفل البطن..

وهناك إشارات إلى احتمال تعرضها لتمثيل بجسدها، وإن لم يكتمل كما دلّت الجروح الغائرة حول مناطقها السفلى.

بالكاد استطعت أن أكمل دراسة الملف..

ثم حاولت أن ادّعي التماسك.

قبل أول خيط نهاري أبيض.. كنت قد انسحبت من فراشي إلى البلكونة في هدوء.. حتى لا تلحظ غادة ما أنا عليه..

دائمًا ما تقلق هي وتفزع من دون روية أو استجلاء لحقائق الأمور.

مستندًا إلى الحائط وقفت.. لم تؤثر فيّ برودة الجو.. وأنا أنفث دخان سيجارتي؛ تمنيت لو أعددت فنجان قهوة ثقيلًا.. وسادة..

بدأ الصداع رحلة الغزو؛

تابعت زوجتي من وراء الزجاج.. كانت طفلة نائمة..

تحسست بيدي النقش على ولاعتي الذهبية.. هي التي أهدتها لي في عيد ميلادي الأول بعد خطبتنا..

لم اخبرها وقتها بأنني أدخن فقط منذ أقل من عام.

دخنت بعد أن تم تعييني في النيابة.. كان يعجبني منظر زميل لي.. بدلته الأنيقة.. والكرافات محكم بعناية، يتوسطه رابط خاص..

والمنديل الملائم في جيبه الأعلى.. والأزرار من نوعية رباط الكرافات ذاتها..

ساعته السويسرية الفخمة.. وعلبة سجائره الأجنبية.. يضع من فوقها ولاعة ذهبية.

نُقل بعد أشهر قليلة إلى نيابة القاهرة.. واحتفظت أنا بهيئته ذاتها ورسمه.

نظرت قليلًا إلى المرآة بعد أن ارتديت ملابسي.. كان شحوبٌ يعلو وجهي...

لم أتجمد مكاني.. وقبل أن أنزل فتحت باب غرفة هانيا لأطمئن عليها.. البرد يشتد هذه الأيام.. وصغيرتي دائمًا ما تخلع عنها غطاءها..

بعد أن أحكمته عليها قبلت جبينها الوضاء.. ثم نظرت إلى وجهها وأنا بالباب..

كانت تبتسم بسمة أمها ذاتها.

تفكرت وأنا أهرول على السلالم.. في كوني حتمًا لا أبدي أي انفعال وأنا نائم.. نومي لا أحلام به..

ولا حتى كوابيس.

توقفت بسيارتي بعض الوقت على الكورنيش.. لا أطيق أن أصل مكتبي قبل الموعد الذي أعتاد الوصول فيه..

ملعون هذا الأرق.. وملعون من تسبب فيه..

ملعون.

كان في محيطي نوعٌ من السكون والرتابة.. برد وظلال وتحركات قليلة.. من الطيور فوق سطح البحر.. إلى المارة بالطريق..

ضقت بالمكان.. وأسرعت لأستأنف السير.. وأنا أدلف من جوار نصب الجندي المجهول.. أبصرت مبنى المحاكم الجديد..

تمنيت لو كان مكتبي هناك.

بعد أن تركت سيارتي في الموقف.. أسرعت بين صفوف الباعة المتمركزين أمام الحقانية..

لم تنجح البلدية أبدًا في إزالتهم من مكانهم العتيق.. وبالسرعة نفسها صعدت إلى حجرتي وفى يسراي الحقيبة..

بمجرد أن قبعت في كرسيي أخرجت منها الملف.. ووضعته أمامي.. وظللت أرقبه حتى وصل صاحبه..

وأمرت بأن يقف بين يدي.

كان شابًا ثلاثينيًا.. طويلًا.. بنيانه عريض كثور.. وجهه مستدير قمحي اللون شاربه متهدل ولحيته مهملة..

شفاهه غليظة وأسنانه صفراء.. وعينه مرسومة بها نظرة انكسار، تبدو كأنها غير معتادة عليها.

نظرت بتكاسلٍ إلى الكاتب بجواري.. وأشرت له إيذانًا بالبدء.. أمللت عليه الديباجة الخاصة..

ونظرت متململًا إلى المتهم يقف أمامي ساكنًا مستسلمًا والقيود الحديدية بيديه.. قلت له بلهجة عصبية:

اسمك وسنك ومهنتك وعنوانك؟؟

كان جابر محمود المتولي.. أربع وثلاثون سنة.. يعمل خفيرًا و"جنايني" في فيلا خاصة.. بـ"أبو تلات"..

ويسكن بغرفة بوابتها طوال الشهر ما عدا إجازة ليومين أو ثلاثة يقضيها في بلدته بدمنهور.

لما سكت لم أجد ما أسأله به.. كأن ما بداخلي من رغبة عارمة في فهم ما كان بجلاء قد تلاشت فجأة..

تمتمت بداخلي.. أعلم كونه يستحق تنفيذ حكم الإعدام فورًا.. لكن.. حقه على المجتمع قبل أن يقتص منه..

أن ينصت له.. هكذا تتم العدالة.. لا غيرها.

ثم أردفت.. في عجالة.. موجهًا حديثي له من دون أن أنظر إليه..

أنت قد اعترفت تفصيليًا في محضر الشرطة بكونك ارتكبت الجريمة.. من دون تخطيط مسبق، لكن عن وعيٍ كامل..

ما قولك في ذلك؟؟

فأجاب مؤمّنًا على كلامي.. وزاد بلغة الكاره.. إنه شرح كل شيء في المحضر..

ولا جديد لديه ليقوله لي.

أهكذا؟؟

بهذه البساطة... لا يمكن...

ليس لمجرد أنه لم يتزوج حتى حينه... وأنه كان مختلف المزاج... وأنه كان ناقمًا محتدًا..

وأنه كان يشرب بعض الخمر من الفيلا في غياب أصحابها.. أو أنه كان يجمع رفقاءه من العربان في الحديقة..

يتسامرون حول حوض السباحة ويدخنون الحشيش أو البانجو طوال الليل..

لا يمكن أن يشكّل كل هذا دافعًا قويًا لارتكاب الجريمة..

كما أن التحريات أثبتت أن فتيات أخريات قد عملن في الفيلا ذاتها وهو موجود.. وأي واحدة منهن كانت بالغة لدرجة تسمح له بمتابعتها وتعقبها..

لكن هذا لم يحدث.. عكس ما كان مع ابنة أخيه الملتحقة بالعمل منذ أشهر

قليلة..

التي ما هي إلا مجرد طفلة..

طفلة بائسة مسكينة.

أجاب باللا جديد عن سؤالي له عن دافعه وما كان يدور بخلده وقت وقوع الجريمة..

وحين طلبت منه أن يشرح لي كيف تم الأمر أو كيف حاول التخلص من الجثة قبل أن يختبئ عند أصدقائه في برج العرب..

وماذا قال لهم عن سبب تخفيه؟؟؟ ولماذا أبلغ أحدهم عنه بعد ذلك؟؟

رفض..

وحين بدت جلية بوجهي تعابير السخط والغضب.. قال لي بلغة فصحى..

تستطيع معاليك أن تملل على معاونك أنه تم أخذ أقوال المتهم كاملة ووقع عليها، ثم تأمر بانصرافي.

فصرخت فيه:

ليس قبل أن أفهم يا حيوان.

لم يقف أمام انفعالي وحدته.. بل توجه بحديثه إلى الكاتب فقال:

هل عليك أن تخبر البك أن القانون ليس به فهم وقناعات وفلسفات.. وإنما هو مقتصر على جريمة وضحية ومجرم..

وعقوبة قد لا تحتاج لتنفيذها إلى حتى الاعتراف.

هالني تعبيره وبيانه..

سألته عن تعليمه.. فأجاب بالحدة ذاتها أنه حاصل على ليسانس الآداب منذ تسعة أعوام..

وأردف أن هذا ليس ببيت القصيد.. هو مجرمٌ معترفٌ بجريمة لا تحتاج إلى

توضيح..

وأي كلام قد يقال هو محض هراء لا أكثر.

ثم أشاح بوجهه عني واستأنف:

أم ترى أنك بحسك المجرب كمحقق تدرك أن نارًا تحت الرماد...

وأن الشمس بازغة من خلف سحائب الظلام... وليست سرابًا من نسج الخيال...

ما الحلم بواقع يا سيدي... وما في واقعنا من أحلام...

حتى تريد سعادتك أن تقلب النار جنة...

والجنة نار.

لم تنطلِ عليّ بلاغته، ولم تخدعني نبرة منولوجه المسرحي....

شعرت أن شيئًا ما يلوح في الأفق بعد أن كان خفيًا...

كأنه لديه المزيد ليفصح عنه...

مستفزًا إياه قلت:

لو كان هناك نارٌ وشمس... أفلا ترى أن وجودهما لسوف يكون أكثر إقناعًا وواقعية من هذالة حضور خيالك على خشبة الأحداث؟؟

فاستدار من جديد إلى الكاتب ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال همسًا ساخرًا في ألم...

وقد شحب وجهه كالمقبل على الجحيم وغامت نظراته:

يريدني البك أن أخبره بحقيقة غير تلك المعلنة...

وأن أقول له إنني لست المستذئب...

وإنني لم ينهشني جوع الليل البغيض لأجن وأفترس ابنة أخي...

فأصعد بها إلى غرفة نوم بالفيلا... وأعذبها وأغتصبها في سادية مقززة

حتى الموت...

يريدني معاليه أن أقول إنني كنت في تلك الليلة سهران خارج الفيلا في حفل زواجٍ لعين...

وإنني لم أعد إلا مع مطلع الشمس وقد أحضرت معي فطور وردتي الناعسة...

التي كانت تبيت بالداخل... حسب نصيحتي..

أنا..

الأحمق..

الغبي..

الخاسر..

وإنني لما أبصرت السيارة في المدخل انخلع قلبي.. لأنها تخصّ البك الصغير.. فادي.. ذلك الذي هو ممنوع من الاقتراب من الفيلا منذ حين..

منعته أمه بعد أن يئست من علاجه من الإدمان، وعجزت عن إيقاف حفلاته المعربدة الشاذة..

وإنني شعرت متأخرًا بأجواء سوء وكراهة تخيم على المكان؛ فأخذت معي سلاحي الأبيض الذي أدخره للدفاع عن نفسي، وتحركت لداخل الفيلا في خوفٍ مميت..

يصفع خيالي كوني أعلم بنفسية ذلك الشيطان منذ أشيع عنه أنه مصاب بالإيدز.. وتصاحبني صرخات أشباح..

وقفت على ما كان.. فأصابها ذعر وهلع لما يصادفها في همجية وبربرية أول الأيام..

نظراتي اللاهثة الفزعة لم تقف على شيء بالأسفل.. فتوجهت إلى أعلى حيث غرفته.. ولمّا عبرت الباب.. كان أحدهم نائمًا في عريه بالسرير..

وذلك المريض القذر الوغد جالسًا في عري هو الآخر وقد قبض بذراعيه

على رجليه بينما المسكينة.. وردة.. ممدة على الأرض جثة هامدة تنزف..

قد نضت عنها ثيابها.. وبدت في ظلال الغرفة الصباحية آثار الاعتداء عليها..

هبّ فادي واقفًا حين أبصر ذهولي.. كان كجرذ بالوعات عفن.. فيه رائحة الطاعون..

وكنت لأتجمد مكاني من هول الصاعقة.. لولا أن سلاحي أسعفني.. فطعنته به طعنة واحدة.. كنت أظن فيها خلاصًا وانتقامًا.

صاحبه المخنث خلعت قلبه شهقة رفيقه.. جرى من دون ثياب إلى الخارج.. ووصلني صوت السيارة من بعيد..

لم أفكّر فيما كان ليحدث بعد ذلك.. لم أستطع حتى التحرك لاحتضان فقيدتي البائسة..

ألقيت عليها أردية عدة تخفيها دونها..

وتجمدت مكاني.

كانت عيناه غارقتين في سيل من الدموع.. وتتقطع أنفاسه بالحديث.. وأحيانًا كان يرتعد بدنه عند نطق اسم ابنة أخيه..

وكنت أنا واجمًا..

كلامه الخطير.. كأنه الصدق.. لا غيره.

لم أكن لأكذبه مطلقًا.

مرت لحظة صمت..

ثم استأنف..

لم أدر بعدها كيف حضرت الهانم، ولا من الذي أخبرها بما كان.. أغلب الظن أنه اللوطي الهارب..

لكنها كانت مستعدة.. دائمًا ما تكون هي في أتم الاستعداد..

وبينما لمحت طبيبًا يدخل متعجلًا تحثه هي على فعل المستحيل ليسعف صغيرها المصاب..

رجالها قيدوني وسحبوني إلى خارج الفيلا.. وأنا أُنقل لمكان أجهله.. كنت أفكر فيما سوف يفعلونه بجثة وردتي..

لم أعرف إلا بعد أن تم الأمر.

توقف هو عن الحديث.. فكاد يجنّ جنوني....

سألته بلهجة حادة: وما الأمر الذي تم...؟!

فأردف:

كانت المرأة حازمة.. لمشاريعها حسمٌ ونفاذ.. بعد أن أعلنت صفحها عما أقدمت عليه..

قالت لي إن أمامي خيارين.. أولهما: أن أرفض عرضها كما هو متوقع.. فتقتلني.. وتقتل أمي وإخوتي وأبناءهم أجمعين..

ولن يكون لأي منا ذكر، ولن يهتم أحد بأمرنا سوى أننا مجموعة من المفقودين أو ضحايا الحوادث الغامضة ـ على أكثر تقدير..

والخيار الثاني: ها أنا ذا أنفذ بنوده.. في مقابل الإبقاء على حياة أفراد أسرتي كاملة..

وبعض المال الذي سوف تغدقه عليهم.

سألته مقاطعًا في سذاجة... كم المبلغ؟

فأجاب في لوعة وتحسر.. أي مبلغ... أي مالٍ لدينا هو مال...

الجنيه عندنا له قيمته يا سعادة البك.

قال ذلك ثم صمت.. ورغم وقع المفاجأة.. وصدمة ما كان..

إلا أنني لم أكن لأصمت أبدًا.

قلت له بعد أقوالك الجديدة.. هل أنت مستعد للمواجهة مع المرأة وابنها؟

لم يمت هو طبعًا.. كما أنك لم تخبرني باسم المرأة تلك.. لصراحة اتهامها...

عليك أيضًا أن تدلنا على مكان السلاح الذي طعنته به.. وبقية الأمر سوف تكون من شأن الطبيب الشرعي.

كان شاردًا... معلقًا بصره في شيء ما بلوحة مكتبي...

كررت سؤالي له...

لم يجب.. فصرخت فيه...

كان يتمتم باسمي من على اللوحة... في بساطة...

قرأت بشفاهه ذلك...

سميح علوي شافع...

وكيل النائب العام.

لما وقفت أمامه وعاودت صراخي؛ قال في هدوء:

سميح بك... أنت تستطيع معرفة كامل البيانات والمعلومات عن طريق تحريات الشرطة، وتوجه الاتهام إلى من شئت.. لكن من أدراك أن قولي هو الصدق؟؟

في النهاية لن يجدي ذلك شيئًا..

فقاطعته محتدًا.. بل إن فيه كل الجدوى... وسواء كنت صادقًا أم كاذبًا لنفتح باب تحقيق أوسع يتضمن جميع ما قيل..

فرفع صوته.. وتوجه بالحديث مرة أخرى للكاتب..

ملاحظًا كونه يدون جميع ما يدور..

لنقل إن من يقف وراء جميع ذلك هي سيدة الأعمال حكمت هانم عتمان..

أرملة الوزير ورجل الأعمال الأشهر الذي تحمل اسمه لحينها، رغم كونها

زوجة حالية للثري الكبير حسيب ثروت القياديَ البارز في الحزب..

فهل من سبيلٍ لفعل شيء... أي شيء؟!

لا أظن هذا..

هي كما علمت أنها هي.. وأنا لا قِبل لي بمواجهتها.. لا هي ولا زوجها ولا ابنها..

أنا - وكما قلت سابقًا - لدي اعترافٌ بجريمة ارتكبت..

وعقوبة هي في الانتظار.

جلست بمواجهة المكتب أزفر نفسًا طويلًا وأسأله: بمعنى؟؟

فأجاب:

بمعنى أنني لن أغير أقوالي الأولى..

فقلت له:

جابر... أنت لن تفعل ذلك...

: بل سأفعله...

ومعاليك لن تثبت غيره... ما من دليلٍ على أقوالٍ أخرى...

قد نُتهم معها بالجنون، أو حتى بالادعاء السخيف المتكرر بالحقد الطبقي وكراهية الأغنياء ومحاربة الناجحين منهم..

الأمر أكثر تعقيدًا من مجرد البحث عن مواجهة ما بين خيرٍ ضعيفٍ وجبانٍ، وشرٍ طاغٍ متجبر..

لم يعد هناك مجالٌ للروح الكلاسية تلك.. اختلطت جميع الأمور، وما من جلاء طهر أو اكتمال براءة..

كلنا بين بين.. وعلينا أن ننحي عن أذهاننا كل هذا..

فقريبًا سوف ننعم برقادٍ يبعد الأشباح عنا..

نومٍ ما فيه من كوابيس..

ولا أحلام.

كان عنيدًا لأبعد مدى، وكنت عصبيًا لمدى أبعد، لكن.. ومع احتدام النقاش.. لم أنلْ منه إلا ما سبق وأعلنه..

لم أدرِ كيف مع كل ذلك تركته ينصرف لمحبسه كما أراد، وكيف سمحت له بتوقيع على ترهات متداولة ممقوتة..

لا تعرف أيًا من حقٍ أو عدل.. لا تعرف من شيء سوى العبث..

لا أدري إلا أنه حين مضى كانت عينه مرسومًا بها نظرة الانكسار ذاتها...

التي تبدو كأنها غير معتادة عليها...

تعللت بمرضٍ مفاجئ وتركت المكتب...

ونزلت ومشيت بعيدًا عن أي شيء...

مترجلًا كنت وسط الزحام... أسواق في الظهيرة...

وأمواج من العامة...

تتلاطم في شقاء.

من طريق لآخر... ومن ناصية لأخرى...

كنت أنتقل مغيبًا...

ومع هذا؛ أحسست بداخلي نواة قدمت من المجهول...

تتجمع نحوها أمور معلومات...

كانت الشوارع والأحياء متشابهة لدي على اختلاف مواقعها ومستوياتها...

من العطارين وأمام سيدي المتولي.. تجاوزت إلى الأزاريطة، وكدت أصل لآخر الشاطبي...

وأعود من بعدها إلى محطة مصر، ثم من بعدها لأجلس في مقهى - على ما

أذكر - في كوم الدكة...

شربت فيه فنجان قهوة ثقيلًا.. وسادة وأنا أنفث في حرقة دخان سيجارتي...

والصداع قد فتك برأسي وأهلكه...

ولا أدري.. لماذا لم أخرج إلى الكورنيش؟؟

الجو كان بردًا... وقليلون من هم فيه...

تجوالي في وسط البلد كان ينتهي ليبدأ من النقطة غير المحددة إلى المساحة اللا محدودة...

من الأقمشة، الملبوسات، الأجهزة، الجوالات، التحف، المقتنيات، المأكولات والمشروبات...

لم يستوقفني إلا تجمعات باعة الكتب في النبي دانيال...

لم أكن أهوى القراءة يومًا ما...

ولم أكن أعرف ماذا أفعل في حيني...

وجدتني أهاتف أبي من محمولي... لأسأله ويضحك...

كنت أودّ أن أعرف اسم ذلك الكاتب الذي سمتني أمي باسمي هذا تيمنًا به...

قال:

وكأنك تبحث أخيرًا عن الثقافة...

هو شاعر.. شاعر فلسطيني ذائع الصيت.. اسمه سميح القاسم...

قصائده في السبعينيات.. كانت أكثر ما جمعني بأمك الراحلة...

وأردف: أخيرًا تعلمت أن تقرأ...

لتفرح بك أمك في قبرها السعيد إذن.. لطالما ودّت لو فعلت هذا منذ أمد...

وظلّ يضحك.. حتى أبلغته ما أنتوي.

غضب بشدة وهاج هياجًا بالغًا.. وأنا لم أعطه فرصة لفهم ما كان...

ولا مهلة لاستدراكي.

بعد أن فتشت بين الجموع عن ديوان للشاعر المنشود.. ووجدته..

عدت من فوري إلى مبنى الحقانية.. ومن مكتبي.. لملمت جميع أشيائي..

وأنا أمسك باللوحة عليها اسمي.. تذكرت كيف أصرّ والدي أن يكتب بها اسمي كاملًا...

قال:

قد يقف أمامك يومًا ما أحد عتيدي الإجرام.. ممن سبق أن حكمت عليهم.. لا بد أن يهابوا الوقوف بين يديك...

وفي أسى.. استعدت تمتمة جابر لاسمي..

في بساطة..

وأنا منصرف لمرتي الأخيرة عن المبنى.. طلبت من الساعي أن يضع الظرف الذي سلمته له صباحًا قبل الثامنة...

على مكتب السيد رئيس النيابة..

كان يحوي استقالتي...

لمّا عدت إلى رشدي.. حيث بيتي.. كنت قد تركت جاكت البدلة والكرافات مع بقية الأغراض بالسيارة...

تكاسلت عن حملها.. واكتفيت بأن صحبت ديوان الشعر...

كانت غادة في حجرة هانيا.. تعلمها.. هي في الأصل حاصلة على بكالوريوس تربية.. وإن لم تعمل به مطلقًا..

إلا أن محاولاتها البائسة في الشرح والتوضيح تنجح أحيانًا مع ابنتنا التي في بداية التهجي...

لما أحست بوجودي.. قدِمتْ لي.. واستغربت هيئتي المغايرة وكوني قد فتحت زر القميص الأخير وشمرت عن أكمامه...

بل وكنت أجلس وأستعد للقراءة في البلكونة...

"ما من حوار معك بعد الآن".. هكذا كان اسم الديوان...

في البداية؛ حاولت هي أن تسخر منه ومني.. لكنني أجلستها إلى جواري وأخذت أقرأ لها...

كانت هي مستمتعة.. وأنا حاولت أن أكون كذلك..

كنت بين الحين والآخر أتوقف عمّا أفعل.. وأبحث في الأفق المعتم عن خيط نهاري أبيض...

وفيما بعد..

كررنا هذا الأمر كثيرًا، وهانيا كانت برفقتنا فرحة دائمًا؛ فأنا كنت لا أخرج مطلقًا من البيت...

و بعد أن زارنا أبي بسخطه العاصف.. تحادثت مع غادة وأفهمتها موقفي..

تقبلته...

وهي التي أقنعتني بتسجيل اسمي في جداول نقابة المحامين..

وجدتها فكرة جيدة... وتخيلت مكتبًا صغيرًا في محرم بك أو المنشية...

تعلق له لافتة باسمي...

سميح شافع...

المحامى...

وبعد حين..

علمت بخبر تنفيذ حكم الإعدام في جابر المتولي...

الذي طالبت النيابة له بأقصى عقوبة؛ مستندة لاعترافاته وتقرير الطبيب

النفسي

الذي يثبت كونه في كامل قواه العقلية...

كنت أتوقع مثل ذلك.. إلا أن كوني تناسيته.. أو هكذا ادعيت..

لم يمنعني من أن أحزن بشدة، وتألمت كثيرًا...

وما هوّن علي بعض الشيء.. تلاحق الأمور من حولي.. وما استجد من صورها وتغيّر.

كنت أشعر كأني في فيض من الأحلام.. أحلام اليقظان.. تلك التي يمتزج فيها الألم والمعاناة.. بالشفاء والراحة..

وإن كنت ـ أغلب الأحيان ـ قد أصبحت تعبًا من الملاحقة..

وغير قادرٍ على النوم.

* مستوحاة من أحداثٍ حقيقية.

****


حرير ··

1

عالقًا كنت..

بطرف حمالة قديمة منسية.. لما أيقظته زوجته على الفضيحة.. العار..

قد فعلها الرجل في نومه..

وبلل فراشه..

استدرك ذهول مشيبه.."الصاعقة".. واستنكر ما صبته فوقه من جمّ غضبها..

التفت إليها في حزم.. وصفع وجهها..

منعتها الدماء التي سالت من فمها.. أن تكمل سيل شتائمها..

قال لها حين هبّ واقفًا:

انتي طالق..

طالق..

طالق..

ثم راح ليكمل إفراغ مثانته.. كان سعيدًا لأنه قد شفي..

أو هكذا خُيّل إليه.

اغتسل.. وخرج، فلم يأبه لوجودها المصدوم مطلقًا.. فقط ارتداني..

ناسيًا كوني هدية من أخيها.. وأني قميصٌ حرير..

وهو لا يستريح أبدًا وأنا عليه..

فأنّى له أن يعرف كم آنس إليه؟؟

2

لما نزل.. سار قليلًا.. إلى أول الحارة الواسعة..

انتبه إلى كونه قد نسيَ ساعة جيبه.. تلك التي ورثها عن أبيه.. كانت من الفضة الخالصة..

ومنقوشًا عليها من الداخل اسمه.. هي آخر ما تبقى له منه.. البيت.. والمقهى.. مقهى عبد الدايم الشهير..

باعه الإخوة واقتسموا ثمنه قبل أن يتفرقوا.. كل غريم في اتجاه.

لم يكن أبدًا ليقبل بذلك.. لكن ميرفت.. زوجته.. وما مارسته عليه من إلحاح وضغوطات جعلاه يرجع عن قراره..

وحببا إليه ما كرهه طويلًا...

لما عبر شريط الترام وسار بمحاذاة المقهى.. (تغير اسمه إلى "...."..

لا يعرف أن ينطق هذا الاسم.. بل وتغير شكله ومضمونه أيضًا.. أصبح "كافيه".. أصبح شيئًا آخر...)..

نظر إلى ذلك الـ"كافيه" وكان كل شيء قد عاد في غرابة شديدة إلى وضعه المعتاد والمألوف..

أبعد كل ما كان بالأمس تستقيم الأمور وتستمر؟!

هنا ومع سواد الليل الراحل؛ وقف ضابط المباحث.. وجلس الباقون القرفصاء.. بعد أن أفرغوا على الأرض من أمامهم ما في حوزتهم..

ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم.. لم يكن فيهم سوى شابٍ واحدٍ.. فر أخدانه منذ لحظات.. والبقية كانوا جميعًا من الشيبان..

ومع هذا نالهم قدر وفير من الاعتداء والإهانات.

كان نبيل عبد الدايم في طريق عودته من العمل.. آخر عودة.. لما انتبه إلى ما يحدث..

رغم بشاعة المنظر.. لم يستغربه..

وانسحب ناحية بيته زاحفًا في هدوء واستسلام..

3

لم يدخل؛ وإنما اكتفى بأن ألقى نظرة إلى صورة صاحب المقهى الجديد.. إلى جوارها صورة محافظ الإسكندرية..

الجديد أيضًا.

في ذلك المكان.. كانت لأكثر من ثلاثين عامًا تستقر صورة لعبد الناصر..

وفقط.

كان يودّ لو قال شيئًا.. لكنه صمت..

ثم وهو يفكر في كونه لن يذهب إلى العمل بعد اليوم.. نظر إلى شرفة منزله..

رمقها في أسى لم يلبث أن تخلّص منه وانصرف من فوره..

تلمس دفتره المرضي.. وهو يسير هائمًا.. في الظل..

دائمًا ما يفضل هو السير في الظل والهدوء.. في ذلك الوقت المبكر يتنقل.. من عثمان أباظة..

إلى إسحاق النديم والفحام وحمام الورشة والسكة الجديدة..

الدفتر في جيبه منذ أمسه.. لم يتخلص منه..

كان سببًا في جميع ما كان.. قد يكون كذلك.. لكنه غير مذنب..

وهو يبتسم.. مرر إصبعه الإبهام "إبهام اليد اليمنى" خلف حمالة بنطاله..

الحمالة الزرقاء تحدها الخطوط البنية الدقيقة.. والبنطال "رجل الفيل" الذي بات لا يتضح لونه من الأسود..

أو البني.. حسبما يظن من تقع عليه عيناه.. لكنه بالفعل بني اللون..

كعيني صاحبه..

رفع الحمالة قليلًا إلى أعلى.. ثم فلتها..

واستأنف المسير.

4

كان يبصر هيئته في زجاج الواجهة الجانبي.. للمحل الكبير الأشهر.. إخوان يوسف "الحلواني"..

وهو يتجاهل النظر إلى جملة أصابعه المبتورة من يسراه.. مرر أصابع اليد اليمنى بين خصلات شعره..

جعدها جفاف زيت الزيتون، فحاول فردها ومساواة سوالفه الطويلة..

رغم الكراهة القديمة والتردي الواضح في الأساور والياقة.. وحتى الأزرار..

فإنه لمًا تفكّر في العروج على الدردار بطريق عودته لمّا تحين صلاة الظهر..

ابتسم لي كأنه راضٍ..

كنت أبدو لفترات طويلة أفضل حالًا مما أنا عليه الآن.. كنت أنيقًا.. أحمل بهجة ورونق الحداثة..

لكنه لم يأبه لي قط.. منذ أهداني له فتحي السروجي.. صهره.. وشقيق زوجته..

الذي عاد من الكويت في إجازة وحيدة خاطفة وسط سنين سبع ليتزوج ويسافر من جديد..

قالت له ميرفت بعد انصراف فتحي:

– لِمَ لمْ تفرح بهدية أخي.. لم تظهر إعجابًا وشغفًا؟؟

تصرفك الغريب جعل منظري أمامه غاية في السوء..

كأنه يهديك قميصًا "نايلون" من أوكازيون "عمر أفندي" وليس حريرًا طبيعيًا؟؟

– مشكور اهتمام أخيكِ..

وتعمده تفخيم هديته وشرح تفاصيل جودتها وتميزها.. لكنني.. إن كنت تذكرين.. لا أحب ارتداء الحرير..

لا أطيقه.. تلك هي طبيعتي.

تصنع الانطباعات الأولى حواجز وفواصل عاتية العلو.. تمنع أصحابها من القفز فوقها..

وأنا وإن كنت يوميًا أشعر بضيقه مني.. وبغضه.. إلا أنني يكفيني ما لمسته منه..

يكفيني القرب حتى إن كان مجبرًا عليه..

تمتعني بشدة.. نظرته الأبية الشامخة.. رغم فقره المدقع.. وذات اليد المبتورة..

وخيلاء وكبر أولئك.. وارثي الشعارات وفقط..

"نحن قوم إذا غلا علينا شيء.. تركناه.."

قبل أن يختفي في ظلام مدخل العمارة؛ التفت إلى طلل البناية.. صارت الآن

موقف سيارات..

سيارات رواد البنوك ومكاتب المحامين والمحاسبين..

وكان مجددًا يود لو قال شيئًا..

لكنه صمت.

5

في صعوده.. نسي في أي الطوابق تكون العيادة.. فتجاوزها كلها حتى قارب الأخير منها..

وهو ينزل شعر بإنهاكٍ ودوارٍ شديد.. ولولا أن عثر على لافتة أمام باب الشقة المقصودة بالدور الأول لما تنفس الصعداء..

ولظن أنه أخطأ العمارة كلها.. فهو لن يعيد من جديد البحث في الأدوار العلوية..

لم يهتم كثيرًا لكونه لم يلحظ بادئ ذي بدءٍ مكان العيادة الصحيح.. فقط قرأ كمن يتأكد..

"وزارة الصحة والسكان.. الهيئة العامة للتأمين الصحي.. عيادة المنشية..".

دخل إلى قلب الزحام في غير تردد.. سلّم دفتره لدى الاستقبال.. وشرح إلى الفتاة التي لم تلتفت إليه مطلقًا..

رغم تعمده مناداتها بـ"ابنتي".. أنه حضر بالأمس.. في ذات الموعد "الثامنة صباحًا"..

ولم يمكنه الزحام الشديد من الدخول للطبيب.. الذي تأخر في بدء الكشف.. لأنه لم يحضر قبل الساعة العاشرة والنصف..

قالت له في جمودٍ وتململ.. اجلس إلى أن يأتي دورك..

وأشارت إلى الداخل من دون أن تنظر إليه أبدًا..

جلس...

وانتظر...

كان يصله صوت الضجيج من حوله.. بينما يتحاشى أن يبصر أيًا مما فيه..

يعلم أن الحكايات المرسومة في أعين كلٍ منهم.. متشابهة.. متناسخة..

تذكّره بما هو عليه.. ولم ينسه بعد.

6

اندفع نحوه بكل قوة.. ولم يتوقف إلا حين ارتمى بحضنه..

بسمته الملائكية العريضة لم تكن موجهة إليه.. بل إلى الرجل الجالس جواره..

كان الطفل ماكرًا.. وأثار ضحك الجميع.. أما هو.. فنظر إلى الرجل مرتبكًا..

لكونه احتضن الصغير وقبله في تلقائية شديدة..

حمله إليه وهو يقول..

– ولدك؟؟

– بل أعز الأولاد....

نعم.. فالرجل الذي يدا في آخر عقده الخامس.. مثله تقريبًا.. يحق كونه "جد"..

لو أنجب نبيل في مقتبل العمر.. لصار كذلك..

نبيل لا ينجب..

تلك هي الحقيقة التي أعلنتها ميرفت إلى الجميع.. بقايا الأهل.. ونفر من الجيران..

– هو يكبرني بأكثر من عشرين سنة.. طعن في شيبه..

وارتخت أهدابه.

لكن الحقيقة التي لا يعلمها إلا الله.. أنها السبب في عدم الإنجاب.. لديها عيب في الرحم..

وفقط.

لم يحزنه ذلك اعتراضًا على قدرٍ أو رزق.. بل أحس بوحدة ووحشة..

أو ربما من بعد ما فقد الأحبة حبًا تلو الآخر.. الأم.. الأب..

وتلك الفتاة "ابنة الجيران" التي عشقها يومًا ما.. وملك عليه هواها فؤاده.

رغم كل ما كان من عذابات الرحلة وشقاء المسير لم يعترض.. فقط.. هو يتساءل:

كيف كان لحاله في رحابها.. "نرجس".. زهرة عمره المفتقدة..

تركته في العراء وارتحلت عنه..

تركته مفردًا موحشًا..

كأشواك الصبار.



تأخر الوقت ؟؟.. ربما..

لن يهم.. لن يضيره هذا..

إذا كان جميع ما حدث بالأمس لم يضره.. فكيف لمجرد تأخر اليوم أن يأتي بذلك..

بالأمس.. كانت حوادث جسام..

بداية من دخوله المكان نفسه مبكرًا وانتهاءً لخروجه منه بعد الظهر.. وذهابه إلى عمله قرب العصر..

وتلقيه التوبيخ من ملاحظ العمال.. علانية أمام الجميع..

كان شابًا مثلما كان هو شابًا في يوم ما.. لكن شاب اليوم لم يقدر أو يحترم له أي مشيب..

قال إن الساعتين اللتين سمح له بأن يذهب للتداوي خلالهما.. واللتين زاد عليهما أربعًا..

جميعهما خصمٌ من راتبه.. وزيادة على ذلك؛ سوف يعمل فترة مسائية لينهي ما تركه من أشغال..

إلى هنا.. ورغم حدة الانفعال.. لم يكن هناك ما ينال منه..

اعتياد لهجة ما.. يفقدها ردة الفعل المعتادة.

لما أنهى الفتى كلامه.. بأن هذا تحذير أخير له.. فإن لم يلتزم ويخرج عن دائرة الإهمال والتسيب واللامبالاة..

التي ورثها من اثنتين وثلاثين عامًا قضاها في مساخر القطاع العام..

فلسوف يطرد غير مأسوفٍ عليه في ذات الانكسار والذلة التي سبقه بها من أفسدوه هكذا.

لم يجد ما يتحدث به.. لن يدافع عن نفسه فيما لم تخطأ موضوعه..

ولن يقبل لها الإهانة الجسيمة.. هذه المرة.. من لسانٍ لا عقل لصاحبه ولا بيان..

أو ضمير..

خلع في صمت "أفرول" الأيام الطوال.. تركه مكانه على الأرض..

لم تكن هنالك من أشياء تخصه.. انصرف وحيدًا في سرعة..

جس من جديد لدى البوابة الكبرى جملة أصابع يسراه المبتورة.. وابتسم..

حتى الماكينة الكبرى التي بترتها طردت غير مأسوف عليها.. في ذلة وانكسار..

سبقته..

هي من أفسدته..

والمكان منذ أمدٍ وهو غريب عنه.

في هدوئه واستسلامه.. تفكّر كيف منعته ميرفت من ترك العمل بعد أن بيعت الشركة..

وقبل هو رغم كل ما حدث..

منعته ميرفت من أشياء كثيرة..

وقبل هو رغم كل ما حدث.

8

كان الرجل إلى جواره.. ذلك الجد السعيد.. يذكره بهيئة رجل آخر..

صورة من الماضي السحيق.. ظل طويلًا يتفكر من هو.. حتى وصل لمبتغاه..

نعم.. الرجل يشبهه إلى أقصى مدى..

يشبه السيد مطر..

ضابط المباحث هذا.. الذي تولى أمور قسم اللبان منتصف السبعينيات..

فأذعن له بالرضوخ والطاعة كل من في المنطقة..

إلا واحدًا..

رجلًا كان - خليل القطب - خدن العمر ورفيق الأيام الخوالي..

لم يسمح له بأن يمارس أيًا من سلطاته المزعومة داخل حدود مقهى عبد الدايم..

ولما احتكما إلى قوة.. اشتبك الرجلان.. وبعد طول صراعٍ وزمنٍ عصيب تمكن خليل منه..

أطاح به وانصرف عنه.. وقد تركه ملقى على الأرض بلا حراك..

فيما بعد..

بعد أن استجمع قوته وشجاعته.. قدم السيد مطر استقالته من الداخلية..

لكن خاله مدير الأمن - آنذاك - رفض الاستقالة واكتفى بنقله، ولم ينفذ السيد قرار النقل إلى أقاصي الصعيد..

إلا بعد أن أخذ عهدا من خاله بعدم التعرض لذلك المتطاول الفتوة خليل القطب.. ولا لأي من سكان تلك الناحية..

وبخاصة رواد مقهى عبد الدايم..

ولم يعد السيد مطر إلى الإسكندرية إلا بعد ذلك بحينٍ طويلٍ.. لما أصبح مديرًا للأمن بها..

وتهامس الجميع بالقصة القديمة.. أما هو.. فلم يعلق.. ولم يتهمها بالزيف والتلفيق..

وإنما من دون مقدمات أو حراسة أو أتباع ذهب لزيارة المقهى؛ فلم يجده كما كان..

وجده "كافيه"، ولم يجد به من كان يبحث عنه في شوقٍ مستغرب.. خليل القطب..

فاكتفى بما كان وصمت لبعض الوقت؛ ثم انصرف وعلى وجهه علامات التأثر.

حدث كل ذلك في المكان نفسه الذي كان فيه بالأمس ما كان..

كيف كان لهم أن يصمتوا أمامه..؟؟

كيف صمتوا..؟

كيف ؟!

لا حاجة له بالسؤال..

لا حاجة له هو بالتحديد..

فالإجابة جلية.. وإن كانت غير شافية...

صمتوا للحظة..

مثلما صمت هو دهرًا بأكمله.

9

لن يصمت أبدًا بعد الآن..

يكفيه ما وصل إليه..

وكيف له أن يطيق سكوتًا.. وهو الذي سمع وأبصر..

ما نال منه..

ليس فقط كلام ذلك الولد المغرور المتعجرف الذي أقصاه عن عمل عمره..

لا.. ولا ما رآه في الشارع..

ولا في العيادة..

لكنه لا يدعي - أيضًا - أن ما رآه في البيت هو "السبب والمسبب"..

لما عاد ووجد ميرفت مع ذلك الشاب الذي يرتبك بمجرد أن يبصر قدومه وينصرف كالهاربين.

بالأمس..

دخل هو البيت وكانت هي تداعبه وتضحك بميعة وصوتها في أقصاه..

تداعب رجلًا غريبًا في بيت زوجها.. وتضحك معه..

تفعل معه ما لم تفعله برجلها ذاته.

ارتبك صغير السن كالعادة وغامت نظراته حتى انصرف في سرعة الريح متلعثمًا..

لا يدرك من يسمعه أيًا من كلماته قط..

أما هي.. فكانت الوقاح.. نظراتها الجامدة ذاتها.. وكلماته الحادة القاسية..

تستنكر السافلة رجوعه المبكر وهو الذي أخبرها بأنه حتمًا سوف يتأخر ما بين موعد العيادة وذهابه للشركة..

هي أساسًا لم تشغل بالها بأن تعرف سبب ذهابه حيث تقوده الشكوى.. فقط أنكرتها عليه..

واستنكرت أيضًا عدم احتفائه بالضيف.. "الضيف"..

هكذا قالت.

وأي ضيفٍ هو.. هو صديق أخيها فتحي الصدوق، وبينهما معاملات ومصالح..

وهي الموكول إليها متابعة تلك المصالح.. أم ترى أنه يريد لأخيها السوء؟؟؟

لم يرد لها جوابًا ولم ينطق بكلمة..

نام؟؟

ربما في حينه.. أو بعد حين..

ورأى فيما يرى النائم حوادث جمة، لم يذكر منها حين استفاق بـ"الفاجعة والصدمة"..

شيئًا قط...

10

لم يتنبه إلى أن اسمه هو المطلوب لدى الطبيب.. تأخر في الدخول إليه..

نبهه جاره الجد.. "الشبيه" أنه دوره.

كان هو من منع نفسه عنهم بالأمس وتركهم وانصرف.. غير مكترثٍ بعد أن قال لأحدهم الذي استوقفه بالباب..

– اذهب لعيادة خاصة إن كان لا يعجبك الأمر...

جلس أمامه صامتًا.. وشرعت الممرضة في نقل بياناته إلى دفترها، ثم ناولت الدفتر إلى الطبيب..

قلّب فيه؛ فلم يعثر على صفحة كشف واحدة قد كتب فيها أي تشخيص من ذي قبل..

فعاد وأبصر الصورة المتقادمة والاسم.. ثم سأل صاحبهما عن علته وشكواه..

و لم يصله أي جواب.

لماذا حضر إذن؟؟

لما بدأ بوله يتقطع حتى انحسر تمامًا.. ورغم ألمه الشديد والمعاناة الجمة..

فإنه لم يفصح به لأحد..

نبيل لم يعتد الشكوى.. مطلقًا..

تفكر طويلا في العمر الذي تقدّم.. تَقدم به ولم يُقدم له شيئًا..

تفكّر.. وارتاب في أمره.

لم يتحدث مع مخلوقٍ قط.. حتى خليل.. رغم أن القطب كان قد حدثه مرة من ذي قبل..

عن آلام المثانة وعلل الحالب والحصوات.. والحرقان..

الحرقان المستمر..

وحدثه مرة أخرى عن تلك اللعنة "البروستاتا".. تتضخم وتتضخم..

تعترض المجرى.. وتقطع الجريان..

تمامًا.

هل يعقل أنه لمجرد الخجل وكبرياء الصمت على المكروه التي ألفها...

أن يتحمل ما تحمله؟!

هل كان لا بد له أن يبصر الدماء ويكابد عناء النزف حتى يبحث عن المداواة ؟!

العجيب أنه ما بين ليلة وضحاها كان قد شفي..

أو هكذا بات يظن نفسه.

11

لم يلحظ ما ارتسم بوجه الطبيب من علامات السخط والغضب، أو ذهول الممرضة إلى جواره..

أخيرًا..

هب واقفًا وهو يكرر إجابة عن سؤال قديم عما به..

– لا شيء.

كان قد بلل ثوبه..

فعلها مرة أخرى بلا إرادة.. أو وعي..

استدار وخرج من أمامهم وشق الجموع المنتظرة لدى الباب..

نزل السلم خطوة خطوة في غير بطئ أو هيبة..

لما وقف بمدخل العمارة؛ أخذ نفسًا عميقًا.. بينما اتسع بصره لجميع ما حوله..

من أناس.. ومبانٍ.. وشجيرات.. وسيارات..

عاد من جديد إلى الموقف.. موقف السيارات الفارهة.. عاد ومعه الذاكرة..

إنه في ذلك الموضع؛ حيث كان المبنى شامخًا.. "مبنى البورصة القديم" الذي تحول إلى أشياء كثيرة..

منها ما خطب فوقه عبد الناصر بقرار التأميم..

"أول طلقة صائبة في حربه الطويلة.. المرهقة".

هو.. وخليل القطب.. وآخرون تاهوا في زحام النسيان..

كانوا من الحضور الثائر السعد وقتئذٍ.. لكنهم تاهوا من بعد ذلك..

تاهوا في زحام النسيان.

ابتسم..

وصار كالواثق، وقد خلف فراغ المبنى وراءه.. اتجه إلى تمثال الباشا "محمد علي".. من قالوا إنه بنى مصر الحديثة..

بنفسه.. "ولنفسه"..

نظر إلى الرجل فوق حصانه.. لم يفقد كبره ولمحة تجبره بعد..

حاول أن يتذكر: هل كان التمثال في مكانه وقت الخطاب؟؟

الخطاب الذي كان لهم.. يوم أن كانوا له..

لم يستطع أن يجزم.. لكنه لم يتردد فيم انتوى.

صعد من فوره وقد فك إزاري.. واعتلى صهوة الجواد من الخلف..

وقد أدار ظهره ليس له وفقط.. ثم خلعني عنه وقد انتشى..

كان صدره عاريًا تمامًا وحمالة البنطال ساقطة من الجانبين.. والبلل لم يجف بعد..

لكنه كان يلوح.. لأعلى.. إلى أشعة الشمس، والسحائب الصيفية تتهادى في ندرة وفي تحرر..

وإلى الطيور الهاربة من حر الظهيرة ذي البأس والقوة..

لما أشار بإصبعيه صانعًا علامة النصر وهو يصرخ بأعلى صوته.. بكل ما لديه..

بآخر ما لديه..

وكان هناك صخبٌ شديدٌ وزحام.. أمواج من المارة والعابرين.. تتلاطم.. لم يلتفت إليه كثيرٌ منهم..

أراح ظهره إلى ظهر التمثال غير آبهٍ بحرارته المنفرة..

فوران روحه كان أعتى.

وأنا.. كان قد رمى بي إلى بعيد.. لكنني لم أبتعد عنه.. ظللت أرقبه..

من على الأسلاك الشائكة المحيطة بزهور الميدان..

حيث كنت عالقًا.

****

مـــاذا حـــدث للحمـــار حين ظن نفسه أسدًا .. فزأر؟!

1

لا أعلم ما كان على وجه الدقة.. فأنا كنت نائمًا.

كان الظلام سائدًا.. وكنت أسيرًا لذات شعوري القديم بالضيق والوحشة.. تكاد أنفاسي تنقطع..

كأن بداخلي نحيبًا طويلًا..

عادني الأمر إذن..

قال لي صديقٌ يدرس الطب.. إني أعاني من نوبات تسمى الاكتئاب الموسمي..

وإنها شرطية التكرار.. ويكون ذلك إما مع مطلع الخريف كما هو الأمر الآن.. أو مع مطلع الربيع..

كأنها تنتابني بالتوازي مع بداية الدراسة أو اقتراب موسم الامتحانات..

قال - أيضًا - إن الأمر بسيطٌ وعليّ ألا أقلق نحوه؛ لأنني إن لم أتخلص منه وأنهي معاناتي؛ فإنني قادرٌ على معايشته..

حتى أتعافى منه تلقائيًا بمرور الوقت وانتهائي من تلك المرحلة.

لم أكن لأقلق.. لكنني كنت أغرق تمامًا في المعاناة والألم.. كلما تكررت تلك النوبات..

في طريق خروجي المندفع من غرفتي الضيقة.. تعثرت بحقيبتي..

وأنا أعاود النهوض من الأرض وأتلمسها تحتي.. كنت ألعن من تسبب في كوني لم أفرغها حتى الآن..

ولدى الباب؛ حمدت الله أني قد نمت بنظارتي.. فالمصباح لا يضيء والتيار الكهربي مقطوع..

ولولاها كنت قد غرقت في بحار الظلمة تلك من حولي.. أكثر مما أنا الآن..

وعلى القليل الواصل من نور القمر خلف الغيمات المتكاثفة.. كنت أبصر باب غرفة ذلك الرجل المنفّر..

وتفكرت أن أطرقه وأطلب منه شمعًا إلى أن تعود الكهرباء..

تراجعت بسرعة عن تلك الفكرة الحمقاء.. واندفعت من فوري إلى سور السطح أحاول أن أبصر الطريق حول البيت..

لم أستوضح شيئًا قط..

وعدت لألقي ببصري إلى باب الغرفة التي تواجهني..

وكانت في الجو رائحة كريهة لمواد بلاستيكية ملعونة تحترق.. معدتي أبدا لم تكن لتحتملها.. وغثياني بات وشيكًا..

لكنني كنت مجبرًا على البقاء.. لست ممن يطيقون الغرف المظلمة.

لم أكمل يومي هنا.. أحضرني ذلك الوغد شريف..

قال إن المكان بسيطٌ ومناسبٌ جدًا لي.. وإن أهم ما فيه الجيران وشعور الألفة فيما بينهم..

أكد ذلك وهو يقدمني إليه..

بهاء.. بهاء عقل.. صديقي الذي حدثتك عنه!

كنت أعلم ذلك.. الثرثار هذا الذي أعياني بأحاديثه عن الرجل..

عم مرسي قال.. عم مرسي فعل.. عم مرسي ذهب وجاء وجلس..

حتمًا قد أعياه بالحديث عني.

ما أبغضه في شريف.. كونه شديد السطحية.. يحكم فقط على الأشياء بظاهرها..

والأكثر بغضًا من ذلك أنه يظن ما به بساطة وميلًا لليسر..

شهرًا أمضاه إلى جوار الرجل.. بات من بعده يحكي عنه كأصحاب السير.

صحيح أن العبرة ليست في الوقت طال أم قصر.. لكن الأسلوب المتبع هو الركيزة الأساسية..

والأمر في مجمله يكاد يماثل الرسومات الهندسية للأبنية.. تتعدد جوانبها.. ولا تتضح خلال التصوير ذي البعدين..

يلزمها رصد لأبعادها الثلاثة.. لتمام الوقوف على ماهيتها..

هذا تحديدًا ما أفعله.

2

للوهلة الأولى.. نفرت من الرجل بمجرد أن أبصرته..

لم ترقني طريقته.. لا كلامه ولا نظراته.. ولا أي من حركاته..

كنت أعاف محادثته.. وضقت بغرفتي لمجرد تواجده بها..

ولما انصرف صاحبي إلى مشواره الطويل بعزبة سعد؛ حيث المدينة الجامعية.. سألني الرجل:

أنت من "سيجر" مثل شريف؟!

نظرت له بنوعٍ من الحدة وقلت متململًا: ألم يخبرك النابغة عني ذلك في حديثه..؟؟

لكنه تجاهل مبالغة ردة فعلي واستأنف.. من أين تحديدًا؟؟

من ناحية بنك الدم؟؟... أم جهة مصنع الكاوتش؟؟

لم أجبه سوى بنظرة مستنكرة.. ثم تشاغلت في رصّ مجموعات كتبي وأوراقي..

فأكمل..

لي أحباء كثرٌ هناك.. كنت قد طويت عليهم صفحة من الماضي.. حتى جمعتني الصدفة بصديقك..

فأعاد على مسامعي أخبارهم، وما سطر على جباههم بأيدي الزمان..

منهم من مات ومن مرض ومن شقي ومن سعد.. لكنهم جميعا قد أوغلوا في المشيب مثلى تمامًا..

مالهم من أمسهم يفوق ما سواه.

لما ذكر أمامي أسماءهم.. كنت أعرف عنهم أدق تفاصيلهم.. لكنني أنكرت معرفتي سوى

بأسمائهم وأماكن تواجدهم بالعمل أو السكن..

وأنا أبصر بعينه الذابلة ميله الشديد لسماع حكيي عنهم.. قلت له هاربًا من لون من التعاطف مع حاله:

لا جديد لديّ لتعرفه.. فأنا كنت دائم البقاء في طنطا..

لم يكن لدى الوقت لدراسة أهل "سيجر".. ولم أكن لأعرف أن منهم أحبتك هؤلاء.

قلت له ذلك وأنا واقفٌ إلى جوار الباب من الداخل؛ في إشارة واضحة له بالانصراف عني..

تلعثم وردد كلماتٍ لم أفهم منها سوى كونه يفضل أن يتركني حتى أرتاح من عناء السفر..

لكنني أغلقت الباب وراءه فقط.. ثم اندفعت ناحية نافذتي الصغيرة..

أخذت نفسًا عميقًا.. وتأملت الحارة الضيقة.. ورش الحدادة المتجاورة بآخرها..

والعمارة الكبيرة تبدو أدوراها الأخيرة كأنها مائلة قليلًا إلى الأمام..

وإلى جوار كل ذلك بيت مهجور خرب ومهدم.. منه إلى الفضاء الملازم لحضرة مسجد سيدي عماد الدين..

رغم عدم تآلفه وتجانسه..

كنت قد أنست بالمنظر.

3

لكنني الآن أشعر برهابٍ شديد.. وأنا أرقب الأشياء ذاتها..

صحيح أن التحركات الخفية التي يصلني صوتها وأدرك معها وجود العديد من الفئران إلى جواري..

تجعلنى اقرب الى تلك الحال عن سواه .. لكنني أتفكر في حكمة ما حدث..

وتوقيته..

شريف الذي رسب في العام الماضي؛ فحرم من مكانه في المدينة الجامعية.. واضطر إلى السكن هنا..

عامًا كاملًا.. كان وحده يشغل سطح البيت، لا أحد يضايقه أو يخترق عزلته وخصوصيته..

وفى آخر شهر له.. يكون هذا المرسي قد عاد من سفرة بحرٍ طويلة.. واستعاد الغرفة؛ حيث هو الآن..

فاحتل بذلك المكان وبسط يده عليه بالكامل.. وصار يتحكم حتى بالنسائم تعبره والأطيار تلجأ إليه بين حينٍ وآخر..

وهذا ما لم يكن لينال من شريف مطلقًا، ولا يمثّل له سوى أمرٍ إيجابيٍ بحتًا..

لكنه حين تظهر نتيجة عامنا الحالي يكون قد نجح.. وبالتالي يستعيد مكانه في المدنية..

أما أنا.. فمادة واحدة لم أنجح بها.. كانت كفيلة لتأخذني من هناك قسرًا؛ لتلقي بي إلى براثن تلك الأجواء المنفرة..

والمجهول البغيض.

الأمر حقًا لا يطاق بمكانٍ..

حين أخرجت الصورة، وهممت بأن أعلّقها على الحائط في مكانٍ يليق بها..

إذا به يقتحم على الغرفة من جديد.. من دون سابق إنذار أو استئذان..

حاملًا معه طعامًا أرشدته فطرته البديعة أنني في أمس الحاجة إليه.. وضعه على المنضدة وتناول عني الصورة..

وقال الآن أنا أحبك وأقدرك.. ما دمت ممن يحبون "أبو خالد"..

ثم علّق صورة عبد الناصر في مكانٍ - هو بالفعل الحري بها.. وكانت طريقته تُظهر أنه صادقٌ في محبته لجمال..

وبدرجة تصعب محاكاتها.. لكنني كنت شديد الحنق..

عقدت يديَّ حول صدري، وقلت إنه لا حاجة لما أقدم عليه من كرمٍ بالغ..

فأنا لا أحتاج سوى للنوم الفوري.

بقيت جامدًا في مكاني؛ وقد خيّم الصمت على المكان حتى انصرف..

ثم ألقيت بنفسي إلى السرير كما أنا ومن دون أن أكمل ما كنت أنتوي فعله..

وأغمضت عيني وأنا أزفر نفسًا حارًا..

اللعنة!

هكذا قلت صارخا في وجهه حين شعرت بيدٍ ثقيلة تستقر فوق كتفي..

اهتزت كل نقطة في جسدي.. وجفت الدماء في عروقي المتصلبة..

وتمسكت بسور السطح المتهالك.. كأن شبحًا يكاد يغتالني من خلفي..

لكن صوته وصلني من وراء ضحكاته المقيتة.. وهو يسائلني في سخفٍ شديد..

إن كنت قد فزعت لمقدمه إلى هذه الدرجة.. كأنه عفريت..

فقلت له بحزم وقد استعدت توازني نوعًا ما.. والتفت نحوه أنظر إليه بحنقي الكامل..

لو تخيلت أنك عفريتٌ لما تصرّفت هكذا.. ليس لكوني أحب العفاريت..

لكنني كنت أظنك أحد الفئران.. وأنا أشمئزّ ويثار غثياني إلى أبعد مدى.. لرؤيتها..

ومقاربتها.

4

كنت أشعر بأن الأمر وإن لم يتم حسمه.. فإنني لا بد أن ألتزم فيه بنوعٍ من الندية..

وأن أستلم أيضًا زمام المبادرة.

من ناحية أخرى؛ كنت أودّ تجاوز آخر كلماتي السخيفة القاسية..

قلت له بصوت مغاير - وأنا أشير إلى البيت المهجور أمامنا: أهذا بيت ريا وسكينة؟؟

صمت قليلًا كأنه يستعيد قسرًا صوته لمحادثتي..

ثم قال ببطء - وهو يحاول أن يبتسم:

ليس في "اللبّان" في نظر الجميع سوى أثر ريا وسكينة..

ثم بدا كأنه استعاد طبيعته نوعًا ما وهو يشير إلى بيتٍ صغيرٍ من دورٍ واحد.. خلف العمارة المرتفعة.. المائلة..

وقال: لم يبق من البيت سوى البدروم.. لا يمكن إزالته لما به من بقايا أجساد الضحايا..

أما البيت نفسه؛ فقد أزيل منذ أمدٍ وأقيمت محله تلك العمارة.

ثم أردف منطلقًا:

لا شيء يبقى..

قسم "اللبّان" ظل يقاوم هو الآخر حتى سقط في ثانية.. ولمكانته أرادت الوزارة أن تعيد بناءه..

لكن القرار التنظيمي المانع للبناء في تلك الجهة الممتدة من أول مينا البصل حتى آخر السبع بنات.. جعل جميع الملاك يتأهبون..

خاصة الكبار النافذين منهم أصحاب شركات الأعمال البحرية ومكاتب الشحن والتفريغ وورش الحدايد الضخمة..

وأقسموا.. أول لبنة سوف توضع في جدار القسم الجديد.. سوف يشيدون امامها ابراج تشغل مكان محالهم المتهدمة..

كان ذلك وقت وزارة ممدوح سالم.. الذي رأى في المحك هيبة الشرطة وكرامتها..

لكن الأمر الصاخب إذ وصل للرئيس المؤمن.. قرر أن ينتصر لعدالة القانون العمياء..

أو هكذا ادّعى.

نقل القسم إلى جوار مديرية الأمن في شارع عبد المنعم..

ومكانه وبعد حين أقيم ذلك المخبز الآلي الصغير.. ومن وقتها امتلأ باب "الكراستة" بمقاهي العاطلين والأراذل..

والبلطجية وأصحاب السوابق.

كان يحدد بيديه في تعجلٍ جميع الأماكن التي يتحدث عنها..

فقاطعته متسائلًا عن معنى الاسم ـ الكراستة..

قال: باب الكراستة.. أو الكرادستة.. اسم الشارع هكذا!!

فسألته مجددًا عن معناه.. وقد تجهمت قليلًا من نبرته الساخرة..

صمت للحظات ثم قال: هل تعلم ما هو معنى كلمة "سيجر"..؟؟

فأشرت بوجهي وأنا أتمتم: لا.

فاستأنف.. ليس عليك إذن أن تسأل عما سواه.

5

تعالت رائحة الاحتراق.. واشتد عمل معدتي..

صرت أسعل بشدة.. وكدت أتقيأ..

نصحني بأن أشرب وهمّ بإحضار الماء.. فاستبقيته وأفهمته أن الرائحة الغريبة تلك هي السبب فيما أنا عليه..

عباقرة شركة الكهرباء حين أتموا مشروع التوسعة الأخيرة..

لم يجدوا مكانًا أفضل من "خرابة الصعيدي" حتى يضعوا إلى جوارها الكابينة الأم..

قال ذلك.. وقبل أن أسأله عن ذلك المكان الذي يقصده.. أشار ناحية البيت الخرب أمامنا..

وأردف:

المشكلة في الحرائق التي باتت تشتعل من تلقاء نفسها من دون أن يعلم لها أحد سببًا..

لا يكاد يمر يوم إلا وشب حريق بالبيت.. إما إن انطفأ في ذاته؛ أو استعر وطال أيًا مما حوله وأوله كابينة الكهرباء..

وكأن المراد أن تعم الظلمة جميع الأرجاء..

قلت متهكمًا: البيت مسكون إذن..!

فأمّن على كلامي في هدوء.. واقترب مني وقد تأهّب لقول خطر مهم:

لا تهزأ بالأمر.. فهو برمته غير طبيعي.. لا في أوله ولا في آخره..

كان كل شيء من اللا شيء..

البيت القديم كان محل نزاع بين مجموعة من الوارثين..

في ذلك الوقت.. كان يسكنه رجل مجذوب اسمه لم يكن أحد ليعرفه؛ لكن الناس اعتادوا مناداته برزق..

رزق المجنون..

كان رزق المجنون يصحب كلبًا أجرب.. وكان لا يكلم أحدًا قط إلا فيما ندر..

وكان أيضًا يختفي في أوقات ويظهر في أخرى.. لا يدعي أحد معرفة أمره أبدًا..

ذات صباح عاد وفي صحبته شاب صعيدي.. عرفناه جيدًا بعد ذلك..

كان اسمه مهاود عبد البر..

حكى لنا مهاود كونه يتيمًا تقطعت سبل رحمه في أقاصي الصعيد..

ونزح إلى الإسكندرية بحثًا عن الرزق والحال الأفضل..

عمل لفترة في الميناء.. يحمل أجولة الغلال والفحم.. حتى كان أن سقط من فوق سلم خشبي..

وأصيب في أسفل ظهره إصابة بالغة.. أعيته طويلًا ومنعته عن العمل..

أقسم مهاود أنه قد شفي منها تمامًا حين وضع رزق يده عليه وتمتم بورد لم يفقهه..

ثم أخذ بناصيته إلى هنا.

سكن مهاود مع رزق في البيت.. ولما حسم النزاع عليه لأحد الوارثين.. وأراد تنفيذ حكم بإخلائه..

لم يتمكن أحد من إخراج رزق.. لكنه في آخر اليوم ظهر لمن تحلّقوا حوله وسدوا جنبات الحارة.. فنظر بثبات إليهم..

وصمتوا من فورهم.. ثم انصرفوا هكذا واحدًا تلو الآخر..

ولم يسمع من بعدها عن صاحب البيت ذلك شيئًا قط، ولا أي من أقربائه.

وبعد حين استقر مهاود في البيت.. وأعدّ لنفسه غرفة منفصلة عن رزق..

ولم يلبث أن استغل المدخل فوضع به طاولة باع عليها حلوى الأطفال ولعبهم الصغيرة.. ثم اتسع به المجال..

فضم لوازم البيت البسيطة من التموينات.. كالسكر والشاي والزيت وحتى الجاز..

وصار له تعاملات مع أغلب الناس في الناحية.

حقيقة الأمر كلنا كنا نحب مهاود.. ولم تعرف الحارة في أيٍ من الوافدين عليها مثل ما عرفته..

من طيبة وأخلاق وشهامة ذلك الفتى..

وأنا قد ظل يقيني على هذا النحو حتى بعد ما كان.

6

كان مهاود في فترة عمله بالميناء قد تعرف إلى فتاة تبيع الشايَ للأنفار.. كانت بنت وقاح..

لكنها كانت تمتلك فتنة طاغية كزهور البراري.. كان مهاود يرقبها عن بعد.. وحين ذاق طعم المكسب واستقر به العيش..

اشتاق لتذوق أطعمة أخرى.. وتمنى المزيد من الاستقرار.

في الليلة التي دخل فيها مهاود على قسمة.. تلك الفتاة اللعوب..

اختفى رزق المجنون وكلبه الأجرب عن الأنظار ولم يبصره بعدئذٍ أحدٌ قط.

حتى كان عصر أحد الأيام.. جلس مهاود أمام فرشه كما اعتاد.. لكنه كان متجهمًا..

ينفث دخانًا من نار الشياطين.. جحظت عيناه في شرودها ونفرت عروقه ونبضت بالشر المستطير..

كان الأولاد من أمامه كعادتهم - أيضًا - يلعبون بالكرة.. التي كانت حين تدخل بالخطأ إلى البيت.. ومهما صنعت من اضطراب..

فإنه كان يعيدها لهم بعد مداعبات شتى.. ويوزع على كل منهم قطع الحلوى..

لكنه في هذه المرة.. وحين اصطدمت الكرة بوجهه غضب بشدة.. وانفلتت أعصابه..

حتى أنه لاحق الصبية في الطريق.. صحيح أنه لم يتمكن من الإمساك بأي منهم..

لكنه أقسم أمام الجمع الذين أضحكهم اصطدام الكرة بوجهه وانفعاله بعدها..

إن نال أحد أولئك الصغار الملاعين لسوف يذبحه.. كالشاه.

لما عاد كان شاردًا.. مرت به إحدى النسوة.. سألته عن حال قسمة..

لم يجب.. كان لا يعلم عنها شيئًا مطلقًا.. الفاجرة تركته وهربت..

أخطأ هو حتمًا حين تزوجها.. وأخطأ حين أغفل طبيعتها.. وأخطأ حين تجاهل تصرفاتها وميعتها..

أخطأ حين أحبها ولم يقدر على طردها؛ فاستحق بذلك أن تهجره وتجعل منه أضحوكة في فم العجائز وأشباه الرجال..

عاره لا حدّ له.. ولا مجال لمحوه أبدًا..

قد يحاول فيما بعد أن يصل إليها ويحتسي دمها النجس.. ويمثّل بجسدها على الطريق..

لكن.. حتى ذلك الحين.. كيف سيطيق لأمره بيانًا..

قد يراها أيّ من أهل الحارة في مكانٍ آخر.. ويعرف منها ما كان..

بل إنها قد تكون قد هربت مع واحد من الأنذال هنا..

ليته مات قبل أن يصل إلى ما هو عليه الآن.. ليته لم يولد أبدًا.

كان يفكر في ذلك والدمع غائم في عينيه.. حتى كان أن أحسّ بولدٍ صغيرٍ يحاول المرور من جواره..

كان معه الكرة التي على ما يبدو قد دخلت البيت وهو مستغرق في همه ومصيبته.

من دون تفكير كان قد أمسك بالولد.. ومن درج الطاولة أخرج سكينه الصدئ.. ووضعه على رقبة الصغير..

يحمله بيد واحدة في الهواء كحملٍ وليد.. لا يعرف سوى الوداعة.

7

كان يصرخ فيمن تجمعوا حوله ويفصلهم عنه المسافة التي أمرهم بالابتعاد إليها..

إنه لن يترك الولد إلا بعد أن يبر بقسمه.. لن يستطيع أحد قط أن يمنعه من ذلك..

هو أهل لأن يفعل كل ما يريده.. هو ليس بتافه إمعة.

وحين نزل جدّ الصغير حسن.. الشيخ مصطفى قارئ سيدي عماد.. وكانت عيناه مغرورقة بدمع المشيب..

قال لمهاود الذي كان بمثابة الابن له وقتًا طويلًا..

ماذا دهاك يا بني؟؟.. كيف لك أن تفعل ما تفعله الآن..؟؟

لو كان الأمر في القسم.. الله يشهد أنك لن تغمسه..

ثم أشار على نفر ممن حوله بأن يحضروا شاة من الأعراب بمدخل سوق السنوسي..

وكانوا قد أسرعوا في إحضارها.

كان مهاود يبدو لهم كما لو هدأ بعض الشيء.. لكن الحقيقة أن بركانه كان لا يزال يقذف حممه..

لما أجلسوا الشاة أمامه.. وأعدوها للذبح فداءً لحسن..

كان يفكر في أولئك المتحلّقين من حوله.. ماذا سوف يفعلون به الآن..

وبعد أن تنكشف لهم فضيحته..

كانت ضحكاتهم وقتئذٍ ترن بداخله وتصنع دويًا مخلخلًا.. يكاد يفنيه.

عاد من شروده على كلمات الشيخ مصطفى له.. في هدوء ورزانة..

إن عليه أن يمر بظهر السكين على رقبة الولد.. ثم يعمل نصلها في نحر الشاة.

نظر إلى الجمع من حوله.. كأنه يبصرهم لأول مرة.. لكنه أغلب الظن كان لا يراهم على الإطلاق...

ثم نظر أسامه ليفعل ما أملوه عليه..

لا صوت يصله سوى أنفاسه اللاهثة.. وابتلاعه بقية من لعابه الذي لم يجف في حلقه بعد..

وحين تطايرت دماء الصغير البريئة على وجهه وعباءته.. انتفض على صرخات الناس المستغيثة..

الذاهلة.. من هول الصدمة البشعة.. أغلبهم تجمد في مكانه.. حتى من كانوا ممسكين بالشاة التي لم يمسها أي سوء..

أما من اندفعوا نحوه فلم يتمكنوا من اللحاق به؛ حيث دخل البيت وأغلق وراءه الباب الكبير؛

فلم يتمكنوا من دفعه أو تحريكه قيد أنملة.

صمت عم مرسي..

كان صوته في الأخير قد اهتزّ بشدة.. وأبصرت عينه بوضوح لمرتي الأولى..

كان القرب قد أتاح لي ذلك.. فوقفت على اكتسائها بحمرة الدماء..

كنت مشفقًا عليه.. لما اضطربت أنفاسه وارتعد بدنه.. كنت أوده أن يمتنع..

لكنه استأنف.

لم يتمكن أحد من دخول البيت وراء مهاود.. حتى من تعلقوا بالنوافذ والجدران سقطوا عنها في غرابة شديدة..

وخلال لحظات.. دوى الانفجار وكانت نيران هائلة قد أضرمت في الداخل..

لا أحد يعلم من أين أتت..!

قيل إن شعلة قد ألقيت من الخارج إلى جوار برميل الجاز فتعاظمت كما كان..

وقيل إن مهاود ذاته قد أحس بفعلته الآثمة فتخلص من نفسه على هذا النحو..

وقيل بل إنه أشعل النيران ليجعل الناس تظن أنه قد مات بينما يكون قد هرب من الجهة الأخرى..

لكن أكثر ما قيل.. وأشده وقعًا..

أن رزق المجنون قد حضر في التو.. وأنه هو من اقتص من مهاود لما أقدم عليه..

حقيقة أن أحدًا لم يبصر رزق وقتها.. ولم يسمع له صوتًا..

لكن كلبه الأجرب خرج من البيت حين أطفئت النيران في الأخير.. وكان جسده محترقًا للغاية..

ولم تمر أيام حتى مات.

8

سألته: هل وجدوا جثثهم فيما بعد؟؟

أقصد مهاود ورزق..

فقال: ما حدث أن الحريق الذي دام لآخر الليل.. من دون أن تسيطر عليه عربات الإطفاء..

نال من أسقف البيت الخشبية البالية.. فما كان إلا أن تصدعت الجدران لذلك..

وتهدم البناء من الداخل..

سقط في بئره.

وقبل أن أسأله عن رفع الأنقاض أكمل إن أحدًا لم يستطع التنقيب بأكوام الحجارة العتيقة الضخمة تلك..

والضابط المكلف بالبحث أمر رجاله بالانصراف وهو يقول.. إن مات الكلب؛ فلقد لقي مصيره..

ولا أظنه لينجو منه أبدًا.

كان يظن مهاود كلبًا.. لم يكن يعلم أنه حمار..

حمار وفقط.

قلت له مستنكرًا.. كأنك متعاطف معه؟؟

فأجاب.. ليس بالتعاطف؛ إنما هو التفهم لما كان.

هل تعلم ماذا حدث للحمار حين ظن نفسه أسدًا.. فزأر؟!

لم أجب.. وتأملته طويلًا حتى أكمل:

ما حدث أنه قد أدرك مأساته.. وتيقن منها..

طبيعته أن يكون طيبًا ونبيلًا.. وأن يتحمل.. وأن يخاف.. وأن يهرب..

عكس الأسد الذي ملك الغاب رغم كونه ليس الأضخم ولا الأكثر تحملًا وفتوة.. وإنما هي الشراسة والتوحش..

صوت الأسد نفسه يصك الآذان معلنًا عن هوية صاحبه..

والحمار حين يفكر في التقليد لن يتقنه أبدًا.. لكنه أيضًا لن يعود كما كان..

سوف يكون أقرب إلى المسخ..

سوف يعتاد الانقلاب على فطرته وانتحال صفات الآخرين.. أسوأ ما فيها بالقطع..

حتى يحتفظ بوجوده سوف يحاكي الضباع في خستها.. والذئاب في مكرها..

والفيلة في تواطئها.. والقردة في تماشيها..

سوف يكون في منتهى الدونية والوضاعة.

كان عم مرسي يلهث.. لما رفع يده إلى عينيه وأنفه الذي احتقن.. واستدار عني خجلًا من انفعاله..

ثم أكمل وهو يغالب نفسه ويدعى السخرية والضحك:

سوف يكون حتمًا أحط من فئران البالوعات.. التي تثير غثيانك وتميتك من الخوف..

فهمت إشارته.. لكن ما أذهلني كان بيانه..

كنت أود لو سألته عن نفسه.. من هو؟؟ وماذا يعمل تحديدًا؟؟ وكيف هو تعلمه ومعرفته ومشاهداته؟؟

أعرف طرفًا من ذلك حقًا.. لكنني وجدت الآن ميلًا لسماعه منه.

مسحت بطرف قميصي زجاج نظارتي.. ورحت أتأمله لما سألني إن كنت سوف أنام..

وكان النهار قد طلع فأذهب عني الوحشة والضيق.

اقترحت عليه أن ندخل غرفتي.. بحثًا عن مزيد من الدفء..

واقترح علي أن يعد لنا شايًا.. فمذاق ما تصنعه يداه لا ينسى..

هذا ما صرت على يقين منه.

"عن أحداث وقعت.. بالفعل".

****

أسوار !

1

هذه ليست خرافة... ××

وإن كان في الأحداث ما قد يجعلها تقترب من الأسطورة... فهذا غير صحيح بالمرة..

ذلك أن أحداثها ممكنة الوقوع.. والتكرار...

في أي زمان ومكان.. فقط.. تتوافر لها نفس العوامل... ××

والأمر ليس كما تصورته مذيعة التليفزيون اللامعة.. ولا فريق إعداد برنامجها الأشهر..

ولا طاقم حراسة سجن الحضرة وإدارته.. ولا الرأي العام المتكوّن حول القضية منذ

الحادث البشع المروع...

القاتل المجرم.. لا يمكن أن يكون نبيًا ولا وليًا ولا تقيًا ولا نقيًا..

ليس هو المخلّص... ولم تكن فعلته الآثمة لأي هدف سامٍ...

وأي رغبة في نشر روحٍ جديدة.

أُنسي الحايم.. مجرد إنسانٍ عادي... وضيع وتافه..

وما مَطعمه لكبد غريمه الأرعن بآية للعالمين.

لا يمكن لمخلوق أن يدرك تلك الحقيقة من دون أن أقص عليه الأمر..

أنا.. الجواب الذي عُلّق من رسغيه على قارعة الطريق... لأسئلة لم تُطرح بعد..

أنا الداني من الأرض.. القصي عن السماء...

2

توقف التصوير ليومين.. لم يبدأ في موعده المقرر.. إذ إنني امتنعت عن الظهور إلا بعد أن ترتدي المذيعة ثيابًا محتشمة وتغطي رأسها..

سرى جدلٌ كبير.. وواجهت اعتراضات شديدة.. وكدت أتعرض لأمور لم أعتدْها منذ بدأ الأمر..

إذ قال لي المأمور صراحة.. إنه لم يكن ليؤمن بوجود الله حتى يعترف بوجودي..

وإنه إما أن أرضخ لرغبته فأظهر في البرنامج في غير كبرٍ وادعاء مكانة..

أو ألقى ما لا أحْمِد عقباه بمكان.. حين يتحطم ذلك الرأس الصعيدي تحت نعل حذائه الميري الغليظ..

لكنه في اليوم التالي أصابته وعكة شديدة.. ولم يحضر لمكتبه..

وحين اتصل يستعلم عن البرنامج.. أخبره معاونوه أن الطاقم قد عاد إلى القاهرة من غير توضيح.

وفي صباح اليوم.. حضر ولم يتحدث لأحد عما ألمّ به.. ولم يعقب أيضًا حين رأى المذيعة قد حضرت في ثوبٍ محتشم وقد غطّت رأسها..

طلبني في عجالة.. وانصرف وتركني معها في المكتب وأحد أعوانه.. الذي كان عليه أن يقدم لهم أي مساعدة في التو واللحظة...

وهي تنظر إلى أوراق المُعد.. سألتني بصوتٍ متعالٍ: هل تعرض لك أحدٌ بمكروه؟!

فقلت لها هازئًا: ليس بمقدور أيٍ منهم فعل ذلك!

نظرت لي بحدة.. فلم أبعد عيني عنها.. وتأملت خصلات شعرها الملون

تنفلت رغمًا عن الغطاء..

ومن دون أن أسأل أجابتني بهدوء... وحسم..

أردت أن أحادثك... لا أن أستعديك...!

3

توقعت أن طلبي بأن أطلع على أسئلة الإعداد سوف يلقى غضبًا منها وسخطًا..

لكن ذلك لم يحدث.. إذ إنها ناولتني الأوراق في بساطة متناهية..

ولما فرغت منها سألتني: ما رأيك؟؟

كان لا يهم ماذا أرى.. هي في النهاية حلقة تقليدية... الهدف منها تسلية العوام ليس أكثر..

ولن تحمل الكثير مما هو منتظر.

سألتها عن موعد العرض.. وكان في الأسبوع نفسه والموعد نفسه..

الأحد.. على القناة الأولى... بعد نشرة التاسعة...

قلت لها في سخرية الخبثاء: ألن يستاء فخامته من عرض أخباري بعد أخباره مباشرة..

إذ سبق أن غضب من هو أعلى منه مكانة وحضورًا... لأمرٍ مشابه.

"القبض على السفاح...

عبد الناصر في باكستان!" ..

ولهذا تم تأميم الصحافة المصرية...

قالت في عجالة قبل بدء التصوير..

لا أعتقد أن لديه القدرة الآن على المتابعة تلك... لديه من يفعلون ذلك نيابة عنه...

ولا أظنهم بغاضبين من أجله!

ثم اعتدلت إلى الكاميرا.. وقدمتني إلى من ورائها... ثم سألتني:

هل حقًا قتلت نفسًا بشرية من أجل جنيهين اثنين؟؟ ومثّلت بجسدها على الطريق؟؟

كنت أعلم أن السؤال لا مفر منه وإن تكرر.. ولهذا أجبتها في هدوء...

ولم أتحدث قط لأحدٍ بعدها...

4

من الصعب أن تتم تسمية ما يصدر عني... كما أنني لست بمسؤول عما يشعر

به الناس نحوي.. جاهدًا أحاول أن أتذكر أين كانت البداية..

ربما هناك.. وأنا دون السادسة من عمري..

كانت مرتي الأولى التي أبصرني فيما يرى النائم.. مدرجًا بدمائي...

يشي وجهي بكوني مدركًا... لكن الحقيقة أنني كنت ميتًا...

لم يعلق ذلك بذهني إلا حين ربطني ماهر – ابن عمى – إلى سور كوبري القناية ببلدتنا..

كنت معلقًا إلى الخارج جهة الماء.. وكان ماهر الذي يكبرني بنحو عامين يعلم قديمًا أني أهاب الماء وأخشى الغرق... وكان مستمتعًا يبحث عن نظرة

رعب في عيني..

وكان ينتظر حتى أبكي ويشتد خوفي فيعفو عني...

لكنني لم أبد أيًا من انفعالاته المنتظرة... كنت موقنًا بأنها ليست النهاية...

وأنني لن أموت غرقًا مهما حدث... وشعرت بالاستهانة مما أنا فيه.

حتى ذهب النهار وطلعت الكلاب فجأة... وتجمعت حوله..

فكاد يهلك من الرعب، وقبل أن تقترب منه؛ ألقى بنفسه من فوق الكوبري إلى الترعة..

وعاد مسرعًا إلى بيتهم وهو يبكي أشد البكاء وفى غاية الذعر... وقصّ عليهم ما كان..

وحضروا جميعهم إليّ ووجدوني بسلام.

حملني جدي الطيب على كتفه..

وتمتم بصوت مسموع "مدد يا سيدي الحايم... مددا"

وفى البيت.. وبعد أن اقتصّ لي من ماهر... أمرني بالابتعاد عنه.. حتى ألزم الطريق..

ويمكنني الوصول..

ومن يومها فرض عليّ نظامًا معينًا من الأذكار - رغم صغر سني - ومن الصلوات..

وحدد لي لبس الأردية البيضاء والخضراء.. فقط..

وحذرني من أن أقص شعر رأسي أو يأتي يوم أزيل فيه لحيتي... أو أقص منها شعرة واحدة..

وحين أدرك كوني استوعب القراءة والكتابة.. تقريبًا كان ذلك بعد انتهائي من الابتدائية..

أطلعني على كتبه الموجودة في السندرة وأوصاني بقراءتها كاملة.. والدعاء له..

ولم يمض وقتٌ طويل حتى وافته المنية... وهو يصلي...

سقط عن الصف في فرض الفجر.

5

كان الوعي بتسمية بلدتنا "الأنوار" وذلك لأن القادم من بعيدٍ يهتدي إلى النور الصادر عنها..

الذي يحيط بمقام سيدي أحمد الحايم - جدي الأكبر - وحضرة مسجده...

جدي عبد الإله.. كان من قلة نادرة اتفق حولها الأهل بالبلدة أن يتم دفنه في الضريح..

بجوار مقام جده.. ليصحب بركته حتى اليوم الموعود.

وأنا كنت دائم التعلق بالجامع وزيارة جدي.. وكنت لا أزال متمسكًا بجميع أوامره..

متتبعًا لجميع سبله التي وعدني بعدها بالترقي والوصول.

ولم أكن قد عاودت الاقتراب من ماهر منذ واقعتي الأولي.. لولا أنني في ذلك اليوم

قد وقفت على بكائه الحار في حضرة الضريح... يستنجد بجدنا!

لم أظهر له كوني لاحظته.. وذهبت لزيارته بعدئذٍ ببيتهم.. وعدنا أصدقاء كما كنا!

وبقينا على هذا لسنوات... من دون أن أشك للحظة واحدة أنني أغضب

جدي...

وأبتعد عن مساره... رغم ما كان بعد ذلك.

بعد أن تصابى أبي وطمع فيمن هي تقارب سني... ولا تكبرني بكثير...

فتزوج فايزة بنت مسعد نصار.. بقال البلدة... شعرت بضيقٍ ووحشة...

ورغبة في عدم لقاء أي شخص.. أو القيام بأي شيء.

كنت وفقط أذهب إلى قبر أمي... كانت مرتي الأولى منذ وفاتها وأنا رضيع...

وكانت فترة انقطاع عن رؤية ماهر أو زيارته... حتى إن بدأ هو بالمداومة على الإتيان.

إلى بيتنا...

لم أكن لأحتاج وقتًا طويلًا حتى أفهم ما وراء كثافة حضور ماهر إلينا، وأنه يرقب فايزة

ويتلصص عليها... وأنها سوف تحب ذلك...

لم يكن الأمر لينال مني أو يغضبني ولو للحظة واحدة.

6

كانت قناعتي أنه نذلٌ وغد... وأنها مومس... وأن كليهما جديرٌ بالآخر...

وأبي بينهما يدفع ثمن اختياره الأرعن... وبصره المعصوب...

وبقيت أفكر هل أبناء فايزة الذين تعاقبوا واحدًا تلو الآخر... هم من صلب أبي حقًا؟؟

لكن الأمور بيني وبين ماهر تم حسمها فيما يشبه المسكوت عنه... ومات الكلام بيننا...

ولم يعد يصلني به من شيء... سوى زمزم!

أخته الصغرى... التي تقترب سنها مني... والتي انتبهت فجأة لكونها أنثى... جميلة...

ساحرة... ولها طهر الملائكة... وورع القديسين.

كانت مجتهدة في دراستها... وكانت نهمة مثلي وشغوفة بالقراءة... ودومًا ما تأتي إلى الصومعة..

التي جعلتها في طرف أرضنا ووضعت بها أهم كتبي...

كنا نقرأ معًا قمم الأدب.. الشعر كما أعشقه... والروايات كما تهواها...

وكانت تقول لي إن لدي أسلوبًا أدبيًا... ونزعة إلى الحق... يجعلان مني رجل القانون..

كما تتصوره دومًا في خيالها الحالم.

هي التي اختارت لي دراستي... ورغم ما قد يفعله بنا البعد... هي التي أشارت عليّ

بالالتحاق بحقوق الإسكندرية...

تمنت لي أن يتم تعييني وكيلًا للنائب العام... وأستقر بالعيش هناك.

لم أدرك كم أحببتها إلا في مرة الفراق الأولى... والعام الذي مضى، وكلانا يغالب شجونه

ويكتم أحاسيسه.. والذي عدت لها من بعده بما أفخر به..

تصدُّري الترتيب العام للطلاب الناجحين من دفعتي.

قلت لها إنهم مجموعة من الحمقى الذين سمحوا لي بالتفوق عليهم... فأنا أعلم جيدًا أنه لا سبيل لي...

أن أتفوق في أي شيء ومقارنة بأي شخص... ولهذا فإن ما وصلت له يحسب لها هي وفقط...

وإن شاءت... كان هدية متواضعة لخطبتنا.

7

لم يُبد عمي أي ممانعة رغم أن الطريق أمامي لا يزال طويلًا.. على العكس من أبي

الذي بدت بوجهه جلية تقاسيم عدم الرضاء والاقتناع..

ومن حولهما... بارك ماهر الأمر في هدوء ولم يحادثني طويلًا... أما فايزة فبدت متنمرة

كأن شيئًا ما يثور بداخلها وتكتمه... لم أفهمه في حيني.

واجتهدت طوال أشهر الإجازة حتى أنال رضاء والدي... من دون أن أفلح..

قال لي صراحة وأنا أستعد للعودة إلى الإسكندرية... لتعتمد على نفسك منذ الآن...

ما يأتي بالكاد يكفي البيت.. واحتياجات إخوتك الصغار...

وأنت لم تعد صغيرًا... أنت الآن رجل وتبحث عن الزواج.

كان ما يدور بذهني ويصعق أذني كلمته "إخوتك الصغار"..

و كنت مجبرًا على القناعة والقبول منذ أمد... ولهذا لم أناقشه طويلًا...

وانصرفت وفي ذهني بداية هذا العام كيف ستكون.

حاولت أن أستغل تفوقي النسبي في عمل ملازم للطلبة... ورغم أني قد أصبحت

من مشاهير الكلية... فإن طريقتي وتحفظي البالغ حدّا من انتشار أوراقي.

كانوا يسمونها "أحجبة الشيخ".. رغم أن أحدًا منهم لا يعرف تاريخ أسرتي..

لكنهم كانوا يسخرون من هيئتي... شعري الطويل ولحيتي المنطلقة في غير تهذيب كالدراويش..

هكذا تندّروا علي وتهكموا أيضًا لامتناعي عن محادثة الإناث المتبرجات تحت أي ظرف ورفضي الكامل..

لأي تعامل معهن...

ذلك ما جعل من الصعب عليّ الوصول إلى أصحاب المكتبات من حول المجمع..

والمسيطرين على مثل تلك النشاطات.

في الوقت الذي انقطعت فيه تمامًا إرساليات أبي... كان عمي يرسل إليّ بين الحين والآخر

النزر اليسير وفق قدرته.. ربما بعلم من أبى ذاته، فأنا لم أكن قد أخبرت زمزم بعد بأي من ذلك..

ومع هذا وبمرور الوقت؛ كنت قد حسمت أمري... على التحويل من الانتظام في الحضور إلى الكلية..

إلى نظام الانتساب... وبحثت قبلها عن عمل مناسب... يمكنني من الاحتفاظ بمعدل تحصيلي ذاته..

وتركت المدينة الجامعية.

8

تنقلت بين أكثر من سكن... ولم يفارقني كابوسي القديم... رافقني كظلي وأكثر...

منذ عادني... بوعيي ودمائي... وموتي...

كنت أعود من المصنع قبل العصر... ومع هذا أكون في شدة الإنهاك..

رغم بساطة ما أقوم به.. مجرد مسح الأرضيات لأحد الأدوار.. وتنظيف نوافذه..

وزجاج مكاتبه.. الشيء الذي لم يكن يستغرق سوى ساعتين.. ثلاث على أكثر تقدير..

من بعده أبحث عن مكان أختلي فيه بنفسي... فأقرأ أو أذاكر أو حتى أنام...

لكني كان محرمًا عليّ التواجد في الأماكن المكيفة بعد انتهاء عملي.. ولهذا

كنت أجلس في مظلات السيارات.. على مقربة من الشمس وحرّها القاتل.

كان مصنع الحديد والصلب هذا عالمًا شديد الكبر والغرابة... أطياف وأجناس..

أناس تبدو راقية محترمة.. وأناس لا تبدو إلا سفلة ومنحطين...

سرقات ونهب... مال لا أول له ولا آخر... ولا صاحب...

معدات وأجهزة وأدوات.. ومخزون من كل المواد يتم تسريبه وبيعه...

كل فردٍ وحسب طاقته وسعته... كل مستوى وظيفي وما يسمح به من سلطات...

وفى الوقت الذي اكتفى فيه أقراني بسرقات المنظفات ومعدات النظافة...

لم يكتفِ بذلك الولد المدلل الذي عين على قمة هرم الشركة الإداري في

غفلة من الرقباء..

لم يكتفِ بأن كون شركة داخل الشركة تمتص رحيقها سرًا... بل إنه اشترى الشركة من الدولة..

بأكملها علانية... وبمن فيها... وبلا ثمن في الحقيقة...

كنت أتعجب من صغر سنه في المرات القليلة التي رأيته فيها عن قرب.. وأنا أباشر عملي...

لكني سمعت المسؤول عن مجموعتي بالمصنع يقول... إنه سوف يصل...

لن يوقفه أحد حتى يعتلي قمة القمم... وحده.

كان الفتى الشاب منبهرًا بالرجل كثيرًا... ويبدو من كلامه أنه أضحى مثله الأعلى...

لم يترك من بعد واقعة استيلاء صاحبه على الشركة فرصة إلا واستغلها...

كان نهمًا.. وبشعًا..

لم أكن لأحب ذلك الـ"خليفة" مطلقًا..

لم أكن لأتعامل معه من الأساس إلا في أضيق الحدود.. فقط هو رئيسي في العمل...

وإن كان ليس لهذه المسؤولية من أي ميزة تذكر... هو فقط يوزع الأعمال في روتينية بالغة...

ويوزع - أيضًا - الرواتب... وتلك هي منطقة نفوذه الكبرى... فهو الضامن لتوقيع العمال على كشوف الاستلام بمبالغ أكثر مما يتقاضونه فعلًا... وهذا هو شرط العمل...

تدفع الشركة الأم لشركة النظافة راتبًا للفرد الواحد... يتقاضى أقل من نصفه في حقيقة الأمر...

وبقيته تذهب لأصحاب نصيبها... سلسلة طويلة ليس أولها خليفة.. وآخرها

لا أحد يعرفه.

9

كنت ممن قبلوا هذا الشرط المجحف على مضض... وفي اضطرار..

أحتاج بشدة إلى تلك الملاليم التي تلقى إلى على الأرض وأجمعها من مكبات القمامة...

وبين البقايا والفضلات... وكنت أتحمل أيضًا أي تأخير في موعد تسلمها...

وحتى لو تراكمت لشهرين متتاليين... فلا حيلة لديّ ولا لغيري في الحصول عليها...

كنا نقترض من بعضنا بعضًا حتى يأتي الفرج.. واعتدنا عدم الانتظام في سداد حاجاتنا الأساسية..

من مأكلٍ ومسكن.. وكانت حياة كل منا معلقة في الهواء إلى لا شيء.. لكننا كنا نحياها.

كان عليّ أن أعود إلى بلدتنا في منتصف العام... رغم أن الإجازة غير متاحة بسهولة في عملي...

وقد تتسبب في ضياعه مني... لكنني كنت أحلم بتغير في حال أبي ومزاجه...

وكنت أفكر في مواجهته والبحث عن سببٍ وجيها لما يفعله بي..

لكني بالزيارة المباغتة وجدت أن شيئًا لم يتغيّر... ما بين أبي وعمي وماهر وزمزم..

فقط أدركت حقيقة الأمر... فايزة هي التي كانت تحرض أبي ضدي...

هكذا قالت لي زمزم... التي كانت قد قصدتها صراحة للتدخل مع أبي لصالحي...

لكنها فوجئت بكلامها الهجومي على ما أقوم به وأفعله...

لم أسكت... وانتهزت فرصة بقاء أبي بين المغرب والعشاء في الجامع الكبير...

وواجهتها...

لم تغيّر من لهجتها ولا حدتها... ولهذا كنت مضطرًا للكشف عما أضمره لزمن...

والحديث فيما لم أقربه من قبل... قلت لها إني لم أتوقع حين تزوجها أبي وأتى بها

إلى بيته أنها لن تصونه وأنها سوف تتحكم فيمن هم أهله وأصحابه...

وقلت - أيضًا - إنني مع هذا آثرت الستر عليها ولم أشر إلى أفعالها مع ماهر

وأتسبب في طردها من البيت بفضيحة كبرى: قد تقتل لأجلها.

كان وقع الأمر عليها صادمًا للغاية... فتوقفت عن المشاحنة معي والصياح بوجهي للحظات...

اقتربت فيها مني وبمنتهى الحسم التقطت نعل أبي من جانب ورفعته على وجهي...

وانصرفت وأنا أتجمد في مكاني...

وحين عدت لإدراكي - أو هكذا تصورت - كنت قد لحقت بها... ورفعت يدي إليها لأقتص منها

وأطفئ شعلة غضبي... لكن ما حدث كان شيئًا آخر تمامًا...

فوران وجنون... وحواجز عتيقة أزيلت في لمح البصر مع ثيابنا التي ألقيت إلى الأرض...

لست أدري ما الذي كانت تفعله... وما مدى وعيها به.. لكنني كنت مدركًا تمامًا أن تلك المرأة..

التي أخذتها في أحضاني ما بين القسر والرضاء... فاستبحت حرمتها... وأتيت على ما لديها...

هي زوجة أبي... وامرأته التي اصطفاها... وسكن إليها.

10

قالت لي إنها منذ دخلت دارنا وهى تحلم بلحظة مشابهة لما كنا عليه معًا...

عري تام... ونشوة بالغة... ونعيم في قلب الجحيم... الذي لا تهدأ ناره قط..

لم أنطق بأي رد... وانصرفت عنها وعن البلدة بأكملها في لحظتي...

وعدت إلى الإسكندرية ساخطًا محتجًا... أرقب البحر الذي لم يغادر ما سمح له من حدود...

فرضت عليه قسرًا..

لم أجد رغبة في مزاولة أي أمر كان.. وكنت أنام لفترات طويلة جدًا ولا أبصر فيها أي شيء..

وأخرج من بعدها لأجوب الطرقات وأقف بالنواصي..

وبعد فترة علمت من أحد الوافدين أن أبي اشتد به المرض... وألمح إلى أن ما يدور بالقرية هو الهمس بكون مرض أبي ليس إلا عاقبة ما فعله بي ونتيجة غضبتي نحوه.. لم أهتم لهذا القول مطلقًا..

فقط أرسلت لأبي خطابًا ألتمس العذر لعدم المجيء...

ووصلني بعد أيام الرد من فايزة... لم تكن تحدثني عن أبي...

سألتني لماذا هربت منها... ولماذا أشك فيها... ولماذا لا أعيرها أي اهتمام؟؟

قالت إنها تحبني منذ أمد وإن لم تنطق بذلك... وإني ظلمتها حين أشرت لأمر ماهر...

لأنها لم تكن تبصر دوني مطلقًا... ولم يمسها أحد غيري...

قالت - أيضًا - إنها حامل... في بدايات أشهره... وإن الجنين لي... وليس لسواي.

لم أستغرب الأمر... ولم أهتم بالقطع... كانت تعرض عليّ الهرب بطفلنا والبحث عن حياة جديدة...

وكنت أرى في ذلك أمرًا ليس بالمستبعد... لكنني لم أكن أرغب فيه ولا فيها...

تجاهلتها تمامًا... وعلمت منذ تلك اللحظة أنني لن أعود إلى الأنوار...

فقتلني احتياجي إلى زمزم...

حاولت التهرب منها هي الأخرى... وكنت لا أرد على رسائلها...

آخر ما وصلني منها كان يشكو بالغ قلقها حولي.. رأتني في منامها أرتدي عباءة جدي واسعة فضفاضة..

ثم بدأت بالانحسار شيئًا فشيئًا؛ حتى باتت بالكاد تغطي عورتي.. وقد انقلب رونقها إلى اتساخ وبلاء..

ابتسمت وأنا أقرأ كلماتها البسيطة الجاهلة للأمر..

وتذكرت معها كوني أضعت عليّ العام الدراسي الحالي... لكنني كنت قد قررت أنه لا مكان

لي في تلك الكلية بعد حيني...

وطبعًا كنت قد طردت من عملي... ومع هذا حاولت جاهدًا أن أعود إليه..

11

كان خليفة مُصر على أمرين... أولهما أن لا مكان لي في رحابه مجددًا...

والثاني... أنه لا أجر لي عن الفترة التي سبقت انقطاعي الطويل غير المبرر.

حاولت معه طويلًا... وقصدت إليه أكثر من رجل طيب... فالأعمال الأخرى التي عرضت عليّ كانت انتحارًا يوميًا لن أطيقه أبدًا... ورغم إلحاحي على هذا النحو الذي أذلني وأجلّه.. لكنه الوضيع لم يستجب...

فقط وبشفاعة الشافعين... قبل أن يعطيني ما يرى أنه حقي حتى يبرئ ذمته...

وحين وصلني... كنت واثقًا أنه معدوم الضمير...

وما أرسله لي أقل من بضع ساعات عملٍ وليس بضعة أيام...

كنت أعلم مكانه المفضل للجلوس... في مطلع السوق... عند عربة كبدة؛ يعمل عليها أحد أصدقائه..

ذهبت إليه... وانتظرته طويلًا... وكنت أتأمل المقابر التي تجاور السوق...

ولا يأبه لوجودها إنسان...

ومنعت نفسي قسرًا من تذكر هيئة قبر جدي... ولم أقرأ له الفاتحة.. فقط طلبت له ولي الرحمة...

وحين حضر تحدثت إليه... وأعدت عليه تفاصيل حسابي... وبمنتهى الاستهانة ألقى ببضعة جنيهات من جيبه إلى الأرض وقال: هذا حقك... فلتذهب عني.

لم أدرك كيف استطعت أن أنحني لآخذ ما رماه إليّ... وقمت بعدّه... ثم استوقفته...

قلت له: ينقصني جنيهان... ولن أمشي من دونهما...

وكان قد بدأ يأكل... فزادت عصبيته... وقذف في وجهي كوب الماء إلى جواره.

تجمدت مكاني... وكنت لا أسمع سوى نبضي يتلاحق... والزحام من حولي كأنه فراغ..

امتدت يدي إلى سكين صغير أمامه على جانب العربة... وأخذت أطعنه حتى خرّ مغشيًا عليه...

الجمع من حولي لم يقترب أحدهم خطوة واحدة نحوى...

حتى صاحبه وقف مكانه...

وأنا... كنت قد مزقت ثيابه... وأحدثت قطعًا طويلًا في جانبه الأيمن...

وشققت عن كبده... واستخلصته كاملًا... وبكلتا يدي رفعته إلى فمي...

وأعملت فيه جملة أنيابي ودروسي.

12

سألتني مستفهمة: وأكلت كبده كله بالفعل أمام الناس؟؟

ولم أشعر بأي حرجٍ من ذلك...

"ولا بأي نوعٍ من الندم... لا لما فعلته به... ولا بغيره"...

ولكني مستاء نوعًا ما لأن الأمور في المجمل انتهت إلى ما هي عليه الآن...

فاستأنفت: ولكنك تعلم عاقبة أمرك؟؟

"ليس تحديدًا... أنا واثق مثلًا من كوني لن يحكم عليّ بالإعدام"...

لكني أجهل ما سوى ذلك.

في طريق عودتي إلى الزنزانة... فكّرت أنني نسيت أو بمعنى أدق تناسيت أن أتحدث عن وكيل النائب العام الذي أجرى معي جملة التحقيقات...

كانت لديه لهجة مستهينة بأمري إلى حدٍ بعيد... على عكس جميع من دونه...

حين سألني لماذا قتلت خليفة... هل من أجل كرامتك أم من أجل مجرد جنيهين يبلغ حقدك عليه بسببهما هذا المدى؟؟

أجبته: لا هذا ولا ذاك... لم يكن لديّ المزيد لأخسره.

– إذن فأنت قتلته ومثّلت بجسده لتجعل منه عبرة كما يقولون؟؟ أو ربما لتقول بنوعٍ من الوحي والإلهام الفوقي؟؟

– ولا أي من هذا قطعًا... قتلته من دون أسباب جلية... لكنني مُصرّ على أنه يستحق الموت...

– وأنت؟؟

– أحط منه ربما.. ولهذا لا أستحق سوى الحياة وأبدية لعنتها.. وقل في ذلك ما شئت.. قدري أن يراني الناس على غير ما أنا كائن... ولهذا لن أهتم مطلقًا لأحكامهم.

كان الرجل ينظر إليّ متفرسًا... لعله يخرج بحديثي عن دائرة الدجل أو الجنون...

ثم أدار وجهه إلى النافذة وهو يأمرني بالتوقيع على أقوالي في نفورٍ وكراهة...

وتمتم لمعاونه وأنا لدى الباب... عساه ألا يحسب بطلًا أو يتخذ وليًا... وإن بدأت آياته في التجلي.

ثم ابتسمت لقول العسكري المرافق لي "تفضل يا مولانا!"...

بالنسبة لهم جميعًا أنا مولاهم... حتى ذلك الذي يسير خلفي الآن...

نحن أمام باب الزنزانة... لم أودّ أن أدخلها مرة أخرى... استدرت إلى السور المطل على الفناء..

قلت له في غير إدراك... نحن في الدور الثالث علوي...

فتمتم في بلاهة مصدقًا على قولي...

ومن دون أن أنظر إليه؛ رميت بنفسي من فوق السور.. كنت أبتسم في الثواني التي حلّقت بها..

وسمعت صوت بكاء زمزم... وصراخها عليّ... فوجمت... وحين استقر جسدي بعد الارتطام بالأرض..

كنت لا أزل مدركًا... وقد غرقت في دمائي الساخنة... أعرف كوني ميتًا!

** الفقرة الأولى بالكامل تقريبًا تحاكي جمل الفقرة الافتتاحية نفسها لقصة (السلحفاة تطير) لأستاذنا الكبير يحيى حقي...

* القصة عن أحداثٍ حقيقية.

****

بشرى سارة!

1

تتسارع خطاك دائمًا.. لكنك لا تصل!

كيف لك أن تلحق به.. هو في السماء.. وأنت في الأرض.. بينكما فوارق كثر.. لكن أهم ما يتقاطع بين العصفور وبينك..

شعورٌ عارم بالغربة والوحشة.. والحنين إلى أي فسحة..

لا سبيل اليوم للقفز فوق أحجار الرصيف.. قدمك التائهة تئن من تحتها الرقع.. لا فرق بين أصفر وأسود..

كما أنك لن تركل الفوارغ والحصى متشبثًا بظلال مرحٍ قديم قد بليت..

ولن تحضر من صدقي البقال النذر اليسير الذي تتناوله دومًا في عجالة من دون أن تجزم إن كان فطورًا أم عشاءً..

أنت لن تأكل هذا اليوم أيضًا.. لم تشعر بالجوع.. لكنك لا تعلم ما السحر في الامتناع عن الشيء.. أي شيء.. لأيام ثلاثة..

قد يكون الأصل في ذلك عائدًا إلى الدين.. وتكرار الرقم في أكثر من مناسبة.. عقدة الإيمان والكفارات بالصوم..

لكنك قد انقطعت عن الصلاة مؤخرًا..

وأنت تدلف للحارة لن تلقي بالتحية على أي من الجالسين على المقهى.. ولن تداعب أمير الصبي وهو ينظف الطرقة..

كما أنك سوف تتحاشى الالتفات إلى عم عبده.. الأعرج.. بائع الجرائد.. ولن تبادله بسماته الغضة..

أو تسأل عن صحته وأحوال بيته.. ورغم التاريخ الطويل بينه وبين أبيك.. الأستاذ حزين البابلي.. موظف الشؤون الاجتماعية..

الذي كان يقرأ الأهرام - من يوم تولاه هيكل – فصار عموده "بصراحة"

ركيزة أساسية لعبد الناصر ومنبرًا لثورته..

يطلّ منه على الشرق والغرب – وحتى وافته المنية بعد ذلك بأيام طوال - أصبحت فيها الحال غير الحال..

رغم هذا.. ورغم تشديد ماما زهرة على اقتناء عدد كل يوم في صبيحته.. فإنك سوف تبتسم خجلًا في داخلك "لثلاثة أرباع الجنيه بجيبك".. وتمر من أمام الرجل كالريح.. وحين تقف عند أول السلم.. وتخرج ساعتك وترقبها في شغف..

تصعده منطلقًا كسهم لتكتشف أمام بابك أنك لم تحطم رقمك القديم.. وإن ضاعفت المجهود..

من دون أن تحدث أي صوت.. تدخل إلى حجرتها.. لكنك لن تعطيها قبلة الصباح..

لن ترغب أن توقظها فتراك على حالك هذه..

لو كانت أمك قيد الحياة؛ ربما ما أصابها ما يصيب ماما زهرة من أجلك..

زوجة أبيك التي فاقت بعطفها وحنانها ما لدى أي أم.. لتزيد من حكمة كونها عاقرًا لا تنجب..

قبل أن تغلق الباب وراءك سوف ترقب مكان الجريدة المعتاد.. وهو خالٍ.. إلا من نظارة القراءة..

وفي غرفتك تخلع ثيابك في تململٍ ورتابة.. تذكر أنك بعدم شرائك الجريدة فإنك لن تطلع على حظك اليوم..

للمرة الأولى منذ أمد.. تشرد قليلًا لتحاول عبثًا تذكر أوله..

وعلى النور الواصل من فتحات النافذة.. تبصر تحركات تفيدة في الدورق..

فتسرع إليها بنوعٍ من البهجة.. لتضع طعامها الذي أخبرك الرجل من محل أسماك الزينة ألا تكثر منه..

لتحافظ على نقاوة المياه من حولها..

وتطيل عمرها..

2

كانت دنيا معك.. يوم أن ذهبت لتحضرها..

كنت تمر بها وسط زحام سوق راتب مسرعًا.. تحاول تجاوز آخره لتصل إلى الميدان..

وكانت تستوقفك مرات أمام محلات الجملة.. وكنت تعلم يقينًا أنها لا تريد شراء أي شيء قط..

وقبل أن تصل بها إلى حيث محلات الحيوانات راحت تمزح حين قالت إن عليك بتربية الحمام التي بها نوع من المنفعة والفائدة.. أفضل من نزوتك تلك..

وهيامك المفاجئ بالأسماك.. وإن كنت لا تطعم أيًا مما في باطن البحر.. ولم تتقن العوم يومًا.. أو تهوى الصيد..

أي صيد..

لم تتفكر فيما يورثه لك كلامها.. وتحاشيت النظر إلى عينيها..

تلمست بأناملك حافة الدورق في يديك.. وكان ما يشغل بالك منحصرًا في أهمية ما سخرت منه خطيبتك..

مرت عينك في غير سرعة على الأحواض المتراصة في المحل، وما ازدحمت به من أشكال وألوان وأجناس..

لكنك لم تستغرق وقتًا طويلًا لتحسم أمرك بمجرد أن أبصرتها.. وكأنه العشق من نظرة أولى..

كانت ممتلئة نوعًا ما يغلب عليها البرتقالي وتتخللها خطوط سمراء.. وتكاد تكتمل استدارتها.. لكنها كانت رشيقة جدًا..

أو هكذا رأيتها أنت.

كنت شغوفًا بشرح الرجل حول كيفية رعايتها والاعتناء بها..

وفي الخارج قالت: لك دنيا مستنكرة.. لولا لهفتك المستغربة لما طلب منك ذلك المستغل الكثير الذي أعطيته له بسهولة ويسر.. هكذا..

رغم أنك لا تملك.. لكنك دائمًا ما تعطي.

لم ترد عليها القول.. وحتى وصل السير بكما إلى المنشية الصغيرة.. حيث بيتها..

ذكرتك بأن عليك مهاتفتها بمجرد عودتك للبيت.. فأومأت برأسك وانصرفت عنها متثاقلًا..

وفي البيت.. وبعد أن هيأت موضع رفيقتك.. وجلست ترقبها من مسافة.. كنت تعيد في مخيلتك كيف سيكون يومك معها..

لما أدرت مؤشر الراديو إلى تردد إذاعة الأغاني.. سمعت فوزي يشدو "بما حدث للورد منذ يوم وحدته.." ..

تذكرت أنك لم تختر لها اسمًا..

وحين نبهتك ماما زهرة إلى أن دنيا تنتظرك على التليفون.. غالبت تكاسلك وقمت إليها..

حين سألتك لماذا لم تكلمها رغم تذكيرها لك.. لم تجب حتى وهي تتهمك بأنك لست معها..

تأكد ذلك لما أخبرتها بأنك أعددت مكانها فصار المنظر بها تمامًا كما تخيلته..

كنت تقول لها إنك سوف تسميها تفيدة.. ولم تستنكر الاسم أو تستفسر

حوله.. قالت لك إن عليك الاتصال بها في وقتٍ لاحق..

هذا إذا ما تفرغت لها..

3

كان رسمها في بالك حين أفقت من نومك.. وكنت تبتسم.. ومن ذا الذي لا يُسر برؤية فاتن..

تحب أنت هذا الفيلم رغم بساطته.. "دايمًا معاك" هو أروع ما قدمه فوزي.. ليس فقط لأنه كان بصحبة فاتن..

ولكن حقًا هو أروع ما أداه.. وأصدقه.. والحكاية من أولها لآخرها سكنت مخيلتك..

بت كمن يعيش بينهما.. بين حمادة وتفيدة.. أبسط عاشقين أبصرتهما..

كثيرون قد لا يهمهم هذا.. وقطعًا دنيا في طليعتهم..

الراديو كان يؤنس نومك همسًا.. حين رفعت صوته قليلًا؛ كانت فترة حليم تكاد تبدأ..

كنت تتمنى لو شاركته أنغام تبادل الأغنيات.. لكنها كانت نجاة.. لا بأس أنت تميل إليها هي الأخرى..

فيما مضى.. كنت تكتب في هوامش كتبك ودفاترك المدرسية.. أسماء الأغنيات التي تهواها..

تحصرها.. وتقارن بين أسماء أصحابها.. ليس لكونك مغرمًا بالتسميات.. بل إنك كنت على العكس من ذلك؛ ترى أن ذيوع الصيت ليس أبدًا مرادفًا لجودة العمل أو قيمته.. المقارنة فقط كانت تمنحك نوعًا من الاطمئنان والثقة فيما تحب أن تنصت إليه..

كنت تتأثر بشدة لنغم الكلمة وتعبير اللحن.. لكنك الآن بت لا تبالي بجمال أي منهما..

تساوت بداخلك أشياء جمة.. وإن تناقضت..

كنت شاردًا في لا شيء حين تراءى لك من خلف الستائر.. من جديد كان العصفور يداعبك..

في لمح البصر نهضت إليه.. وأنت حذر من إخافته.. تخشى عليه من الاضطراب الذي هو قدره..

لم يلبث أن سكن حتى رحل.. وأنت وقفت مكانه.. لتدخل هي عليك متثاقلة.. قد أضناها التعب.. ورغم هذا لم تنس إحضار كوب اللبن إليك..

تنفر من رائحته وتعاف شرابه.. لكنك سوف تضع يدك على يدها بحنوٍ وأنت تأخذ عنها الكوب..

ثم ترفع يدك الأخرى لتنحي بها راحتها التي تقي أعينها من كثافة الضوء المصاحب لشمس آخر النهار..

تبتسم لمداعباتك الطفولية وتذكرها أنك لم تقبلها في الصباح.. وتقترب منها مغازلًا.. فتنهرك وتأمرك بالتحشم..

لكنك تخطف القبلة رغمًا عنها..

وحين ترقب المغيب وقد انصرفت عنك؛ تتفكر أنها تعشق الصباح دائمًا.. ولذا لن تبقى طويلًا حتى تنام..

هي حقًا زهرة.

4

تلتقط أذناها حفيفك بالطرقة.. تستوقفك قبل النزول..

فضل!.. لن تخرج حتى تطعم.

تفتح عليها غرفتها وتبصر جلستها في منتصف السرير.. مطلع الخريف يحمل سمت الصيف ومع هذا فهي تستدفئ بأغطية ثقال.. ونبرة صوتها المعتادة تؤكد لك أننا لا نحيا لنأكل؛ وإنما نأكل لنبقى أحياء..

تبتسم لها وقولك الكذب أنك تأكل مع الصحب في راحة العمل.. لا صحب لديك.. ولا عملك به راحة..

أضحت لا تملك منك إلا توسلًا ورجاءً.. أن تعتني بنفسك.. وتهتم بها..

كنت تزفر نفسًا قصيرًا وأنت تومئ لها بالإيجاب.. ثم أبصرت مجددًا موضع الجريدة خاليًا منها..

لم تسألك هي عنها.. ربما تعلم سببك المانع وإن صغر.. لكنها حتمًا لم تفقد اهتمامها..

ليست هي بالمرأة التي تفقد اهتمامها بشيء قط.

لدى الباب يصلك الصوت المغاير.. صوتك أنت..

فضل.. أنت لن تخرج!

لا تزال تخشى ما قد يقع.. الأسوأ من الأسوأ.. منذ أمدٍ وأنت قد نحيّت عن ذهنك جميع تلك الهلاوس..

صحيح أنك لم تكن على ذلك القدر من سخف التشاؤم.. لكنك كنتَ تشعر فقط مثلما أنت الآن.. بقبضة في القلب..

خفقة تنسحب لها روحك من بدنك.. وتفقد القدرة على التنفس.. تذكر معها ساقك التي كسرت لانزلاقك من على السلم.. كان ذلك يوم الثلاثاء..

والثلاثاء الذي تلاه؛ لكونك خرقت الحصار المفروض عليك وخرجت لاعتماد إجازتك من الإدارة الطبية بالجامعة.. التهب حلقك..

وبدأت تسعل واحتقن أنفك وارتفعت حرارة جسمك، وانتهى اليوم وأنت

مصاب بالجديري المائي..

هكذا قال لك الطبيب اسمه.. وأنه مرض معدٍ لم يصبك في الصغر.. حبوب تمتلئ بالماء ولها وخز قاتل..

انتشرت بجسدك طولًا وعرضًا.. لم تكن لتهدأ إلا حين تخلع عنك ماما زهرة ثيابك كلها وتضع عليها ذلك المحلول الملطف..

كنت تخجل منها كثيرًا.. وكنت تخشى أن تنقل إليها العدوى هي الأخرى.. كانت أفكارك مميتة، وكانت نفسيتك محطمة تمامًا..

وعليه بقيت لآخر الشهر حبيس غرفتك.. بل حبيس الجملة المكتوبة في لا مبالاة جمة.. بالصفحة المهملة..

"تجنب الظهور في ثلاثاء شهر الميلاد.. عليك بالحذر"

والحذر لا يمنع قدرًا.. والخوف شيء.. والحذر شيء آخر.. وما تفعله أنت في حقيقته يختلف تمامًا عن كليهما..

تبقى قليلًا في مكانك بلا حراك.. والصوت يتردد وقد زادت حدته وعصبيته:

فضل.. لن تخرج!

تتمنى لو طال بك أمد اللا وعي.. لكنك تخرج في النهاية وأنت لا تعلم ماذا عليك أن تفعل..

هي المرة الأولى منذ أن أدركت التي تخرج فيها من البيت من دون أن تعلم ماذا يقول لك حظك اليوم..

بعيدًا عن فرحك بأي بشارة يحملها ما هو مكتوب في الغيب.. فإنك - وعلى العكس - كنت تستطيع أن تخرج رغم أي تحذير..

كنت تحاول قدر استطاعتك أن تتجنب.. وأن تحذر..

اليوم أنت لا هذا ولا ذاك.. لا تعلم عن نفسك ما كنت تود أن تعلمه..

لكنك تخرج في النهاية.

5

تنسحب الشمس من مواضع فرضت عليها سطوتها لحين.. ويعود أغلب الكادحين إلى منازلهم..

لكنك تسير في اتجاه مستغرب.. تخرج الآن لعملك.. ولا تعود منه إلا مع نفرتهم أول اليوم..

أنت تحب السير في المناطق حول بيتكم.. الفراهدة، العناني، وسيدي المتولي.. العطارين حتى محطة مصر..

فإن تجاوزت ذلك فإنك تشعر بنوعٍ من الرهاب.. يجعلك تتفكر في أن الجميع من حولك يحدقون فيك..

لذلك؛ فإنك تسرع الخطو ولا تثبت نظرك إلى شيء كان..

وبعيدًا عن بصرك المعلق في السماء.. فإنك قد تؤخذ لمرأى زوجٍ فريد من الأحبة يجمعهما الود والشغف.. في رقة وتعفف..

الندرة هنا تكمن في أن سواد الطريق الأعظم أضحى يتفاخر بالابتذال والسفور والاحتكام للغرائز..

لكنك لم تكن لتمنع نفسك من التساؤل حول ما يقال همسًا بينهم.. كانت النجوى تشغل بالك دومًا..

هي والموعد.. موعد الغرام.. زمان اللقاء المحدد لمدى التقديس.. أن تترك أنت الجميع لترحل إليها..

وتدع هي كل شيء لتتفرغ لك.. لتتحاور بالشوق الأعين والأهداب قبل الألسنة..

بالطبع لست أنت أنت.. وليست هي دنيا..

لقاءاتك أنت ودنيا ليس لها من أي موعدٍ محدد، والصدفة تغلبها دومًا..

وأحاديثكما فيها غاية في السخف والبلادة..

والخواء.

أنت قاسم مشترك في جميع ذلك، ولا سبيل للفرار من المسؤولية.. أنت من اخترت أن تكمل المسير إلى جوارها..

هي فتاة جميلة حقًا.. تشبه إلى حدٍ ما ملامح عمتها "ماما زهرة".. يغلفها نوعٌ من الهدوء الآسر..

وهي مثلك عزوفة عن الكلام.. ربما كان هذا ما جذبك إليها.. من مثلك لا يرى فيها زوجة مثالية؟!..

تلك الشابة المتدينة المتعلمة ذات الأصل الكريم.. بل إن أول عيوبها الذي اتضح لك بعد القرب كان سببًا آخر في تعلقك بها..

حدتها وقوتها.. وإلى حد ما قسوتها.. تعلم أنت جيدًا كم أنك ساذج غرّ.. وتفكرت لوهلة أن أبناءك من واحدة تشبهك سوف يكونون أسوأ حالًا منك.. تائهين ضائعين مهمشين.. لا حق لهم ولا حياة من الأساس..

كنت تبتسم حين ترى أشقياء الطرقات يتعرضون لهم ويضربونهم ليل نهار..

وكنت تقول إن أبناء دنيا حتمًا لن يكونوا كذلك..

لكنك وفي أحيان أخرى.. كنت تخشى حد الموت أن يحدث عكس ذلك.. أن تؤثر شدة دنيا وجفافها على الأطفال..

أن يخرجوا لحياتهم وقد شبّوا على الخوف والكبت.. لكنك لم تعِ حقيقة السؤال المفترض..

كيف لك أن تضمن لأبنائك ما لم يمكنك توفيره لنفسك؟؟

أنت في رحاب دنيا لن تكون بأفضل حالًا مما تخشى لأبنائك أن يكونوا عليه.. فهي من أول يوم تفرض عليك الشرط تلو الشرط..

إشاراتها آمرة ملزمة.. و"لاءاتها".. مانعة حاسمة..

مشكلتك أنك في موضع معين قد رجعت بالأمر إلى العاطفة.. وتصورت أنها في حاجة إليك.. لتتغير..

وأول ما كان في توجهك هذا.. هو عدم الانصياع لرغباتها.. ومحاولة الخروج عن دائرتها الخانقة..

النتيجة هنا غير مضمونة.. والاحتمالات واردة.. لكن الأكيد أن دنيا ليست في حاجة إليك كما تتصور..

أنت الذي في حاجة إليها..

وهي في حاجة إلى غير ما تحسب أنت.

6

تحادثك باللهجة العلوية ذاتها..

تذكرك بنبرة مستنكرة أن أيامًا ثلاثة قد مضت ولم تصل لرأي نهائي.. وهي تسير إلى جوارك كانت تحدق بك، وقد أشحت وجهك بعيدًا عنها..

وبإيقاع حركتها السريع نفسه قالت في غير تردد.. إن الأمر لا معضلة فيه كما تود أنت أن تصوره..

عمتها في آخر أيامها.. والمرأة المسنة ليست في حاجة سوى لغرفة واحدة في أي مكان.. تخلد بها للراحة والنوم لا أكثر.. وهذا ما يسهل عليك تدبيره..

وببعض المجهود تقوم بإعادة تجهيز الشقة وفرشها حتى تناسب زواجكما.

لما وقفت أمام المحل الذي تعمل به.. كانت تتفرسك في حَنَقٍ مكتوم.. ومن جديد استجوبتك:

"البيت بيت ماما زهرة.. وإن كانت قد عرضت في وقت ما أن نتزوج معها فيه.. فأنا لم أقبل..

كيف لي الآن أن احتله وأطردها منه؟!.. لا يمكن.. أنا غير موافق.. وأبوكِ مهما تشدد لا يمكن أن يقبل ذلك في حق أخته..

التزامي أمامه لا دخل لكِ به.. أنا المسؤول".

لما قلت لها هذا أشاحت بيدها في الهواء اعتراضًا وتمتمت بكلمات غاضبة محتدة، وانصرفت عنك إلى موعد رجوعها من راحة منتصف اليوم..

وأنت تبتسم كنت تعبر الطرقة إلى الجهة الأخرى؛ حيث المحل الذي تعمل أنت فيه..

ترتدي الزي في يسرٍ وتبادل زملاءك التحية، ثم تجلس إلى كرسي.. كرسي الكاشير.. بالمدخل..

ثم وأنت تحاسب العملاء رحت تتأملها من بعيد.. كان الفراغ الكبير الشاغل لمنتصف السوق يفصلكما..

وكنت تتابع تعاملها مع رواد المحل.. انزوت بواحدة منهن إلى جانب.. كان يبدو عليها كونها تقنعها بالشراء منه..

لا يصلك الصوت قطعًا ولا تجزم بما يدور هناك.. لكنك موقن بقدرتها على الإقناع.. والبيع.

هي خريجة التجارة مثلك.. الدفعة التي تليك.. لما فشلت في إيجاد وظيفة مناسبة.. بحثت عن فرص أخرى..

كان منها بائعة الملابس تلك.. وبعد أقل من شهر كانت قد أقنعتك بأن تعمل في محل الوجبات السريعة هذا..

قلت لها إنك لا تجيد الطهي؛ فقالت بحزم: إن المطلوب كاشير يقوم بمحاسبة الزبائن.

وضحكت أنت وقتها وقلت إنك بذلك لن تبتعد عن تخصصك.. وضحكت هي

وقالت إنها لم تبتعد هي الأخرى من قبلك.

وترددت طويلًا في الذهاب إلى أول أيام عملك.. لكنك غالبت نفسك وحضرت.. ولم تعلم من أين واتتك الجرأة أن تقول لمن يقف أمامك مبلغ حسابه.. أو تعد وراءه.. أو تطلب منه المزيد إذا ما أخطأ في العد..

ولم تعلم حتى الآن ماذا تفعل مع أولئك الذين ينصرفون عنك وقد أشاروا إليك بطرف أصبعهم كي تحتفظ بالباقي لك!

أنت لم تصبح خبيرًا في طرق التعامل المثالي مع العملاء.. ودائمًا ما تقع في المشكلة تلو الأخرى..

فرواد المولات الجديدة تلك لهم درجة غريبة من التفاوت فيما بينهم..

وموقع "زهران" يضمن له ذلك الخليط المتنوع.. المُحير..

واثق أنت من كونك لست أهلًا لما تعمل.. ولن تحبه حتى تعمل ما تحبه..

أنت لم تعرف قط ماذا تحب أن تعمل.

7

تحضر كرسيًا وتجلس إلى جوارك.. بعد أن فرغت من عملها.. وتسألك باهتمام مستغرب عمّا كان بالأمس..

أجبتها.. لا شيء.. ولم تكن تعلم أن خبر وجود عملات مزورة في إيرادك قد انتشر في جميع المحلات.

قلت لها مجددًا إن الأمر بسيط.. وأنت تسلم الإيراد اكتشف صاحب المحل عشرين جنيهًا مزورة..

سألت.. وماذا بعد..؟؟

فأجبت.. أعطيته أخرى سليمة..

صرخت؛ فانتبه محيطكم.. من جيبك؟؟

لم تكن تعلم ما يجب فعله.. الرجل لن يتحمل الخسارة وإن كانت تافهة بالنسبة له.. وأنت المسؤول..

أخرجت آخر ما له قيمة في جيبك وأعطيته له غير آبهٍ بقسمه الرافض.. وانصرفت عنه في صمت..

ما بقي في جيبك "ثلاثة أرباع الجنيه" كان من الممكن له أن يوصلك إلى محطة مصر على الأقل..

لكنك فضلت أن تمشي.. وإن امتد بك الطريق.....

لن تدرك دنيا معنى كونك شعرت بغصة خانقة دفعتك لما فعلت.. كل ما يعنيها الآن هو أن تأخذ أنت من الدرج ما ترى هي أنه حقك..

من دون أن يعلم أحد بذلك.. فأنت لست بأغنى من صاحب المحل.. ولا من الوغد المزوّر الذي أورثك الورقة المقلدة..

تشعر برفضك أكبر من مجرد كونه كلمات.. وإن كان ما تسمعه من لومٍ وتوبيخٍ يصعق أذنيك.. فتفقد تركيزك لوهلة..

وتستفيق على إهانة أبلغ.. ذلك الضخم الواقف أمامك صارخًا مستنكرًا.. يحق لك أن تخطئ في حسابه ما دمت غارقًا.. هكذا.. في بحر العشق..

يقول هذا وقد ألقى في وجهك النقود وبصره معلق بدنيا.. واتهمك بالسرقة.. وطلب المسؤول في المحل.

ارتفع معدل ضربات قلبك واضطرب تنفسك.. لم تنطق وتكاثف الضباب حول رؤيتك لكامل الموقف..

وصلك صوت دنيا تسبه وتنعته بالحيوان السافل..

وخيل إليك أنه كان يقترب منها.. يحاول ضربها وأنها صرخت تستغيث..

تلتفت من حولك بحثًا عن أداة مفتقدة.. ومن دون سابق تخطيط تخلع حذاءك وتضربه به..

تتمتم بلا وعي.. "يا ابن الكلاب".. ثم تدفع العوائق بينك وبينه.. تنقض عليه..

تضربه ويضربك..

قبضته تكاد تخلع فكك..

وأصابعك التي أحكمت استدارتها حول عنقه تكاد تزهق روحه..

لحظات.. وتفض الشرطة الاشتباك.. أفراد غاية في العنف والبطش تسقط فوقكما ضربًا بلا هوادة..

تستعيد بعضًا من وعيك المفقود في القسم.. وتضغط براحة يدك على عينك اليسرى.. تؤلمك بشدة ولم تعرف من أين أتتك الضربة التي...

كادت تخرقها..

وبعد حين.. يحضر والد دنيا..

ويتحدث إلى صاحب المحل بعيدًا عن ضابط المباحث الذي ارتسمت بوجهه علامات ضيق وكراهة..

ليس لديك أدنى شك في كونك صاحب حق..

فبماذا يتم اتهامك الآن؟!

لا تعرف.

8

تنهض للرجل الواقف أمامك بينما ابنته قد بقيت هناك إلى جوار أخيها في

صمتٍ وضيق..

يخبرك بأن الأمر في سبيله للنهاية.. وأن التسوية تمت على أساس كونكما شابين متهورين لا أكثر..

الإصابات لا مبالغة فيها.. وإصلاح التلفيات البسيطة بالمحل قسمة بينك وبين غريمك..

وهو ينصرف عنك متعللًا بتأخر الوقت.. أكد أنك سوف تغادر القسم بعد فترة قصيرة..

ثم وهو ينظر إليك بثباتٍ قال إنه في انتظارك غدًا.. في بيته.. لمّا تستيقظ آخر النهار كعادتك؛ إذ يعتقد أنك تكون قد هدأت وتعافيت.

لم تنطق بكلمة طوال الطريق وأنت إلى جوار صاحب عملك.. وفي المحل ترتدي ثيابك وتسلمه زيه..

وقبل أن تنصرف يعطيك بقية راتبك.. وقد خصم منها نصيبك في إصلاح التلفيات..

لم ينتصف الليل بعد.. لا يزال فيه الكثير..

يستهويك التسكع في الطرقات؛ فتستقل سيارة إلى وسط البلد.. وفي أثناء مرورك بالقليل الذي لم يغلق أبوابه بعد من محلات سعد زغلول..

تتذكر أنك منذ فترة طويلة لم تحضر ثيابًا جديدة.. ومن بين المعروض الذي لا يتفق أغلبه مع ذوقك ومزاجك انتقيت قميصًا رماديًا مع جينز أسود..

رغم انقباضها من الألوان الغامقة.. فإن ماما زهرة كانت تحب أن تراك بها.. كانت تضحك وهي تقول إنها تظهر جمالك وتوقّر صغر سنك..

لعلك سوف تثأر منها الآن بإحضارك هذا الشال وردي اللون.. بعد وفاة أبيك هي قد حددت لنفسها الأبيض زيًا أوحد.. في جميع الأوقات..

وتغييره الآن وبخاصة بلونك المبهج ذلك؛ لن يكون من السهل تقبله لديها..

لكنك سوف تستميت عليه.. وفي الغالب سوف يكون النجاح حليفك..

فأنت تحضر الآن لها كمية لا يستهان بها من اللب الأبيض الطازج.. ولن تنسى وأنت بأول النبي دانيال أن تحضر عددي الأهرام عن الأمس واليوم..

فأنت الآن في يومٍ جديد.. كما أنك لن تنسى أن تحضر لها علاج السكر؛ لأن ما لديها كاد أن ينفد..

لكنك لا تعلم ماذا سوف تقول لها عن عودتك المبكرة.. وآثار الضرب بوجهك.

الليل إلى سكون مهما كان من محاولات رافضة.. والطرقات أخلتها موجات البرد من المارة..

وآخر رحلة للترام يجلس على مقاعدها بضعة أشخاص لا أكثر - متفرقين طبعًا - بحثًا عن مزيد من التحرر المفتقد..

كان يحب أبوك الوقوف بكم في المنتصف.. وأنت كنت تستمتع بلعبة الحراك الذي تصنعه القنطرة الدائرية به..

والحبل النازل من الأجناب عن العمود الكهربي يعلو ويهبط.. دائمًا كنت تود أن تمسك به لكنك كنت تخشى العاقبة.. وإن لم تدركها تحديدًا.

تنزل أمام دار ولادة إسماعيل، وبخطوات قليلة تصل إلى البيت.. لم تنتبه لكون أمير صبي المقهى قد استغل انصراف الزبائن؛ لينام على كرسي بالداخل.. لكنك سوف تتعمد إلقاء التحية على عم عبده بصوتٍ مرتفع حتى تصله داخل غرفته؛ حيث صوت الراديو العالي..

بآخر حفلة أم كلثوم التي لا ينام قبلها..

لن تفكر في صعود السلم جريًا.. فقط تصعده في غير تكاسل.. وتدخل الشقة من دون أن تحدث أي صوت..

تضع الأشياء على المنضدة.. وتحمل الجريدتين للداخل.. تفتح باب الغرفة عليها وتأبى أن تقلق نومها وتزعجها..

تبتسم لكونها كالأطفال تخشى النوم في الظلام؛ فتضيء نور الغرفة..

ثم تضع جريدة اليوم مكانها بعناية، وحين تراها تتقلب في السرير؛ تهم بالخروج من الغرفة حتى لا تراك.. وتغلق الباب من خلفك في هدوء.. وتمني نفسك بقبلة الصباح.

تخلع ثيابك وأنت تحيى تفيدة وتداعبها.. وتطلب منها النظر إلى بعيدٍ حتى لا تبصر عريك..

وبعد أن تضع طعامها القليل.. تستلقي قبالتها على سريرك وتفتح الجريدة أمامك.. تضحك حين تكتشف تعلق عينيك نوعًا ما بإعلانات الوظائف..

جاء الوقت الذي تسبق فيه تعليمات والد دنيا.. ثم تفكر أنه حتمًا سيحمل لقاء الغد مواجهة حاسمة..

وفي عجالة تبصر صفحة المنوعات.. حظك اليوم.. حظ الأمس..

"لا تتردد كثيرًا.. تقدم.. ففي انتظارك بشرى سارة!"..

تود لو أحضرت جريدة اليوم لتبصر ما كتب لك فيها.. لكنك تذكر اعتيادك على مطالعتها بعد ماما زهرة..

تأخذ نفسًا عميقًا.. وتمسح وجهك بكفيك.. وأنت لا تعلم أنها لن تتمكن من فعل ذلك..

لن تنهض عن سريرها إلا محمولة لمثواها الأخير..

تبقى أنت طويلًا في مكانك.. قبل أن تخرج.

****

مدار ..

I

كثيرًا ما أختلف مع الآخرين من حولي...

ودائمًا ما أكون أنا... محور أي خلاف...

رأيهم عني...

وانطباعاتهم وما يستتبعها من أقوالٍ ومواقف...

تثير حفيظتي...

إلى أبعد درجة...

لكنني مع كل ذلك... لا أظهر شيئًا من الامتعاض أو الاعتراض...

أنا...

أدرك جيدًا ما أفعله...

كما أن قوة إرادتي تفرض نفسها على مجمل الأحداث...

فلا يكون حينئذٍ أي داعٍ إلى الالتفات لصغائر وترهات وتوافه...

لن تفيد... ولن تضر...

جميعهم سخروا مثلًا من كوني قد حجزت رحلة الطيران هذه المخفضة...

وانتظرتها عشرين يومًا... كنت أستطيع أن أعود فيها مبكرًا إلى مصر...

وبماذا كانت ستنفعني العودة المبكرة...؟؟

لا شيء مطلقًا...

لكنني وفّرت بانتظاري هذا نحو الأربعمئة ريال...

كما أنني عملت خمسة عشر يومًا من العشرين تلك واستفدت بدخلي فيها...

راتب نصف شهر بأكمله... الأساسي والإضافي وبدل السكن...

والأهم من كل هذا أنني قد استكملت مراسلاتي مع الشركة القطرية..

حيث موقع أرقى وأهم... وأجدر بالنفع.

لن أطيل بقائي هكذا..

وإنما بمجرد وصولي سوف أتقدم بأوراقي للسفارة في القاهرة..

وأنتظر صدور التأشيرة... لتأتيني... وأسافر...

أسافر على رحلة مثل التي أنا بها الآن...

ولسوف تكون المضيفة حسناء مثل تلك التي عرضت عليّ الجرائد...

ولسوف يكون طعام الغداء شهيًا... مثل الذي سوف يوضع أمامي في خلال دقائق...

كنت أفتقد هنا الطعام الشهي.. لكني لم أتأثر، فأي طعامٍ مهما كان لن يماثل أبدًا طعام البيت.. بيت أمي تحديدًا..

وغامت نظراتي قليلًا وأنا أنظر من النافذة الصغيرة بجواري...

رحلت هي بعد أن وصلت السعودية بأقل من شهر...

كنت جديدًا في الشركة... ولم أتمكن من النزول في إجازة لأقف بنفسي على وداعها...

قال لي أبي: البركة في إخوتك الكبار...

ثم علمت منهم فيما بعد أنه قد قرر الزواج.

لم أغادر موقع عملي في أقصى الشرق بالدمام إلا مرتين أديت فيهما العمرة...

مرة لي...

ومرة لأمي...

وها أنا ذا أعود بعد سنوات قاربت على الثلاث.

2

عن التسلط والتجبر...

أحمل وجهة نظر أحسبها صائبة...

فأنا قد واجهت هذا المزيج اللعين منذ أمدٍ طويل...

ولقد تكون تلك المواجهة صاحبة الفضل على إلى الآن...

كانت البداية في الجيش...

لما وقف الصول فاتح أمامنا وقد أخفض كل منا بصره إلى موضع قدمه...

بينما أخذ هو يسب أهلينا ويلعن أسلافنا...

ثم قال..

إن الواحد منا كزنبرك أعوج... عصي...

طالما أحكم هو ضغطه علي رؤوسنا بنعل حذائه الميري...

طالما بقينا أجمعين في سكون ورزانة...

أما إذا رفع عنا ولو شيئًا بسيطًا من إحكامه...

فإنه لن يرانا إلا بوجهه نصيبه ونحدث له الضرر والكارثة.

لما خرجت إلى حياتي العملية..

فيما بعد..

شكرت للرجل الذي كان يتلذذ باستعبادنا وتسخيرنا للا شيء... ويتفنن فيه أيما تفنن...

ما رسخ بداخلي من رؤى وأفكار....

جميعنا - المصريين - ينطبق علينا توصيفه ذاته...

منذ عهد من بنوا الأهرام...

إلى عهد من سيهدمونها على رؤوسنا...

وأنا لشدة مصريتي كنت مثالًا صارخًا على هذا.

لم أستنكف قط أمرًا ألمّ بي...

عملت في مهن عدة... كنت أبني وأحمل أنقاضًا وأنظف الشوارع والطرقات...

كنت أوزع أنابيب الغاز...

وكنت أوصل الطلبات في مطعم...

ورغم نشأتي المتدينة... عملت لفترة في مقهى اشتهر بلعب القمار...

وعملت لفترة أخرى بملهى ليلي...

لم أكن وقتئذٍ التفت إلى شهادتي...

أبي هو من كان يذكرني بها يوميًا...

وأنا سئمت كوني حصلت على بكالوريوس الهندسة هذا...

لكنني حين تمكنت من نيل عقد العمل في شركة البترول السعودية تلك...

عدت لأذكر مؤهلي ببعض الخير...

وودعت فترة البؤس والشقاء هذه... بعد أن كنت ممنونًا بشدة إليها...

لولاها لما تكفلت وحدي بمصاريف سفري....

حتى السيارة التي أحضرها أبي لتوصلني إلى المطار...

حاسبته عليها...

لم أكن لأسمح بأن يسبغ أحدهم الفضل عليّ...

وأبقى مدينًا له.

كنت أظن أن أقسى ما في الأيام أن يسّبني صاحب عمل جاهل أميٌ... حقير...

لكنني حين سافرت عرفت الأقسى...

والألعن.

أصحاب المال هناك وأولو الأمر منهم أغبياء منحطون...

لا يسلم منهم حتى الخبراء الأجانب...

لكن الحق مع الغلبة...

وأنا كنت أرى معهم الحق كله...

ولهذا لم أتضرر منهم قط.

صحيح أنني كنت في أول أيامي معهم شديد الخشية والحذر...

وحاولت أن أكون طيعًا قدر الإمكان...

واجتهدت في محاكاة تصرفاتهم وحتى لهجتهم...

إلا أنني بعد ذلك تحررت نوعًا ما...

تحررت إلى مدى بعيد أنشده ركيزة لما دونه...

ولهذا؛ كان جملة ما واجهته هنالك لا يذكر.

على عكس ما رأيته في دقائق معدودة وأنا واقفٌ بباب المطار... لحظة الوصول...

بعد أن ملأت الاستمارة الفارغة التي وزعوها علينا...

كنت أنتظر فرجًا من لدن ذلك الفلاح الأرعن المتغطرس...

لا تليق أبدًا له ملابسه العسكرية...

عساه بقى في جلبابه الذي ما من سروال تحته...

أبوه قد أنهك في مجامعة البهائم... عوضًا عن أمه التي التهمت البلهارسيا كبدها...

وأفنت عافيتها.

لما نطق باسمي... في بلاهة القرويين...

هلال عزمي...

سحبت من يده جواز السفر في حزم...

وانطلقت.

3

لا أومن بشيء اسمه الحظ...

ولست أرى في أي من التفاؤل أو التشاؤم إلا الحمق والسفه...

وما ارتدائي لسلسلة ذهبية... أو تركي لظفر الخنصر...

إلا دليل سطوة وحظوة...

فالطبائع حيث كنت... ورغم الفساد يعمها ويحدّها من كل جانب...

إلا أنها تتشدد في أمر ارتداء الرجال للذهب...

وترك الأظافر لعبث الشياطين.

لو خلعت عن رقبتي هدية أمي العتيقة...

أو قصصت عن يسراي الظفر وعمره سنوات...

لما اختل بنياني وتنظيمي.

تفكرت في ذلك وأنا أبصر أجواء الإسكندرية الخريفية...

الضباب سيد الأفق...

وأبي الذي يعد ذلك نذير شؤم وهلاك؛ لن يترك المنصورة أبدًا ويحضر إلى هنا.

حر هو فيما يعتقد ويفعل...

لكنني لن أذهب لزيارته إلا بعد أن أفرغ من مهامي الجسام...

هو يظن أنني نويت اللحاق بموسم الصيف في شقتي بشاطئ النخيل...

لا يعلم أن الصيف انتهى...

وأن هذا هو سبب رئيسي في تحديد موعد نزولي وقبولي المكوث بها...

لا يعلم هو أيضًا أنني تمنيت لو لم أقتنع بحديث أخي سعيد حول شرائها...

قال إنها قريبة من سكنه بالهانوفيل، ويستطيع بسهولة الإشراف عليها...

وإنها سوف تدر علينا دخلًا ممتازًا من إيجارها للمصيفين...

عامان وهي ملكي... وما جاء من ورائها ما يذكر...

ومع هذا فلا ضير...

عام آخر وأبيعها لأريه حقيقة ما أسميه ربحًا.

وهل يعلم سعيد كيف يكون الربح؟؟

هل يعلم هو مثلا كيف يفعل مثلي في الصفقة التي سأتمها في غضون أيام...

أسدد بقية أقساط قطعتي أرض سيدي كرير...

وأسجل عقديهما في الشهر العقاري...

وأبيعهما بالسعر الجديد فورًا...

لأبتاع قطعتين أخريين إحداهما في أبو تلات والثانية في برج العرب...

كنت قد اخترتهما من موقع الوسيط العقاري الإلكتروني...

وهاتفت صاحبيهما قبل نزولي مباشرة، ووصلت معهما لاتفاق نهائي...

بينما أخي نائم في حضن زوجته..

لا يدري عن الدنيا أي خبرٍ كان...

ولا حديث له سوى عن الكساد..

والتعب..

هو أيضًا... لا يعلم أنني سأعود إلى قطر لا السعودية...

سوف أخبره حين أذهب لتقديم الأوراق وسداد مصاريف السفر من القاهرة.

ورغم قلة حيلته...

لن ألغى توكيلي العام له...

أحتاجه.

4

لا أعلم...

إن لم تفارق أمي الحياة إلى الآن...

هل كنت لأتزوج؟!...

هي ومنذ أمد كانت قد وضعت عيناها على أكثر من واحدة...

استعدادًا لترشيحهن أمامي...

أعلمهن جيدًا...

و لم ألتفت لأي منهن؛ لا فيما مضى ولا الآن...

سوف أتزوج من أخرى...

مختلفة...

وان كنت لا اعلم عنها سوى النذر اليسير..

لكنني قد حسمت أمري...

اسمها إيمان نور الدين.

5

أول أيام عودتي طلت من ظلالها أشباح الريبة... والشك...

فوجئت برحيل سعيد إلى المنصورة...

لما حدثته في اليوم التالي... شعرت به هاربًا من شيء ما...

تركني لأبي...

والآخر كان يجوب بي طرقات الحديث البعيدة بلا أي جدوى...

لكنني لم أنه اليوم إلا وطلبت من سعيد العودة فورًا حتى نستكمل أمورنا...

وحين عاد بعد يوم... لم يتكلم...

صحبني إلى سيدي كرير...

لم يكن الطريق ولا المداخل قد اختلفوا كثيرا عما وصفه لي سابقًا...

تقريبًا استطعت أن أحدد عن بعد موقع قطعتي الأرض خاصتي...

كانتا شديدتي القرب...

بيد أنهما كانتا قد شغل حيزهما...

بنيت فوق إحداهما فيلا... والأخرى وضعت بها أساسات منزل يبدو جليًا

كونه ريفيًا...

صعقت...

كاد يجن جنوني...

أمسكت بتلابيب أخي...

كادت أنفاسه تنقطع... وهي يخبرني أن من ابتعنا منه الأراضي كان نصابًا مزورًا...

هو قد أخذ الأرض بوضع اليد كما كنا نعلم...

لكنه باعها مرة أخرى لأناس غيرنا...

دفعوا أموالهم جملة واحدة...

وسجلوا عقودهم في الشهر العقاري...

ثم وقفوا بثبات فوق الأرض.

لم يكن من شيء يفعله...

تم الأمر بسرعة شديدة...

واختفى اللص في لمح البصر...

يقول البعض إنه في مطروح... والبعض الآخر يرجح أنه في السلوم..

وآخرون يجزمون أنه في ليبيا عند بعض الأقرباء.

في ذلك الحين...

بت غير واثق من شيء...

لست متأكدًا لا مني ولا من أخي...

لا من الزمان ولا من المكان...

فقط...

الأمر الوحيد المؤكد أن جهدًا كبيرًا قد أهدر وسرق...

وبما لا يمكن تعويضه.

لا أدري كيف عدت من حيث كنت إلى المكان الموجودة به شقتي...

كنت بمفردي...

وكنت أحدث نفسي في أغلب الظن...

وكنت أعبر الطريق...

لما صدمني ذلك الشيء المجهول... الصلب... المندفع...

بعنفٍ بالغ...

لأرتفع أمتارًا عدة في الهواء...

وأعود لأسقط على الأرض من دون حراك.

لما نزل طيفها مسرعًا من السيارة كنت أئن...

تقتلني ساقي.... وجسدي يخونني...

ورغم السخط والغضب...

أدركت كم هي جميلة.

6

حين استعدت إدراكي في المستشفى...

كانت تبكي إزائي.

كنت أعلم يقينًا فيما مضى... أن بكاء المرأة قد يثير تعاطفًا وتراحمًا...

لكن ما رأيته كان مغايرًا...

كان يثير حنينًا وشوقًا...

أجمل أنثى باكية أبصرتها في حياتي.

في أوقات الفراغ التي طالت من حولي... كانت مخيلتي تنسج صورتها أمامي... وكنت أستعيدها وما كان....

وأظل هكذا حتى تأتيني.

كانت تحضر يوميًا إلى غرفتي...

علمت من الطبيب أن مجمل إصاباتي يتلخص في كسر مضاعف بالساق اليمنى...

وبعض الرضوض والكدمات...

لكن أثر الصدمة والسقوط على الأرض يستلزم بقائي في السرير

عشرة أيام لتمام تعافي منطقة أسفل الظهر والحوض...

وأستطيع بعد ذلك استخدام الكرسي المتحرك نحو الشهر إلى أن يكتمل شفائي.

لم أكن لأطيق كل مظاهر الاهتمام المصطنعة تلك...

التي لا غرض من ورائها سوى تحصيل قيمة فاتورة ضخمة....

سأتولى أنا أمرها قطعًا لا هي...

صحيح أنها أعلنت وقت تنازلي عن محضر الشرطة ضدها كونها ستتكفل بنفقات العلاج..

إلا أن هذا مما لا يليق أبدًا...

وما دام الأمر نومًا وراحة فقط...

بيتي أولى بي.

عدت لشقتي...

وطلبت من سعيد عدم إخبار أبي وإخوتي في المنصورة بأي مما كان...

واكتفيت بأنه كان يقضي حاجاتي بين الحين والآخر...

واضطررت طبعًا إلى إخباره مبكرًا بجميع ما أنتوي... حتى يستأنفه...

وسافر بالفعل إلى القاهرة لتقديم أوراقي إلى مكتب السفريات ودفع أتعابه.

وكانت إيمان لا تزال تعودني...

ولا تزال تعتذر...

لكنني تجاوزت تلك المرحلة الثلجية... بالتعارف.

تعارفنا في البداية بجمل وصفية بسيطة... تبعد كثيرًا عن مخبر أي منا الحقيقي...

أخبرتها ضاحكًا باسمي وكوني "ميكانيكي"... مهندس ميكانيكا الطاقة... في شركة خليجية...

وأخبرتني خجلة باسمها... وبأنها تعمل حاليًا مديرة لحضانة إحدى المدارس الخاصة...

وتفكر جديًا في التحضير للدراسات العليا.

كنت في شوقٍ غريب إلى أن أعرف عنها المزيد.

ألمحت لها بأنني تعب من الوحدة... وأنني كنت أفكر في الارتباط...

لم تكن ترتدي أي خاتم في يدها...

لكنها أخرجت واحدًا فجأة وأنا أحادثها...

ووضعته بيسراها في صمت...

وتركتني بعد قليلٍ وانصرفت وأنا في جمود.

7

لم أكن أظن أنها ستأتي في اليوم التالي...

ولا في أي يوم غيره...

لكنها أتت...

و من دون أي إشارة مني إلى ما كان...

حكت...

هي الآن ليست مرتبطة...

لكنها كانت متزوجة...

كان زميلها في كلية الألسن...

القسم نفسه...

والعمر نفسه تقريبًا... وأيضًا الميول نفسها...

أحبها وأحبته... واتفقا على الزواج بعد التخرج.

أهله ميسورو الحال كأهلها...

اتفق كبار العائلتين وانتهى الأمر بهما في بيتهما بعد بضعة أشهر...

قضت معه أيامًا هانئة...

لكنها كانت مجرد أيام...

كان يكفيها منه فيها رقة القلب قولًا وفعلًا...

كانا زوج عصافير يهيم فرحًا من غصن إلى غصن...

خروجهما كان كثيرًا...

ووقتهما في البيت كان مرحًا ولعبًا...

بيد أنه لم يكن بأمر زواج...

أمها قالت ذلك...

كانت تسائلها دومًا عن سبب تأخر حملها...

ولمّا ذهبت معها لطبيبتها...

كاد يتوقف قلبها...

ابنتها لا تزال عذراء.

نعم؛ هو كذلك...

فالزوج لم يمسها مطلقًا...

كان لديه مشكلة كبيرة...

وكان يعلم بها منذ أمد...

هذا هو ما ساءها...

أنه أخفى عنها الحقيقة...

خدعها...

حد علمها بعد فضل التربية وتوعية الدين...

أن الزواج لا بد أن يكون كاملًا...

لم تكن الغرة الساذجة لتعلم حقيقة كيف يكون المعنى الحرفي لذلك..

لكنها كانت تعلم أن الأزواج يتناسلون...

ينجبون أطفالا يحملون صفاتهم...

حيوات تولد من حياة...

وتحمل الاستمرار.

خدعها هو في أول الأمر حين أخفى حقيقة مشكلته...

وتصور أنها طفلة قد يلهيها عن ذلك الأمر بالخروج والسمر...

فلما انكشف أمره..

ما كان منه إلا أن أمعن في إهانتها...

نالها منه أذى فوق ما تحتمله الإنسانة المحبة المخلصة...

كأنه ما أحبها يومًا قط.

فقد كل شيء معناه بداخلها...

وأجبروه أهلها في نهاية الأمر على الطلاق...

واستجاب هربًا من الفضيحة..

أمها وأبوها دائمًا ما كانا يعلنان لمحيطهم أن ابنتهما بعد عام زواج

لا تزال عذراء...

وهي كانت ترفض تمامًا الحديث في الأمر...

قررت أن تعمل...

وكانت تحتفظ بخاتم زواجها معها دائمًا...

في بعض الأحيان تستخدمه كوسيلة دفاع مؤقتة وسريعة...

ومضمونة النجاح.

8

أنت لي...

هكذا قلت لها حين خرجنا من البيت لالتقاط أنسام المغيب...

كنت مقعدًا على الكرسي...

وكانت هي تساعدني في التحرك.

لما قالت لي إن سبب وقوع الحادث كونها غابت عن الوعي...

وهي تقود سيارتها عائدة إلى البيت...

كان طليقها يحاول معاودة الاتصال بها...

وألح في مقابلتها...

ولم يكن منها إلا أن رضخت له...

التقته في كافيه.

قال إنه شديد الندم على ما كان...

معترفًا بجرمه...

مستعدًا لتحمل أي عقاب...

غير البعد عنها.

هو يحبها...

ويعلم أنها تحبه...

ولهذا ينتظر منها مساعدته...

طبيبه أخبره أن حالته غير ميؤوس منها...

وأنه قد يستجيب للعلاج...

لأن ما هو نفسي فيها أكثر مما هو عضوي...

ولهذا فإن أمله فيها كبير.

لم ينتظر منها ردًا مباشرًا...

أعطاها مهلة للتفكير.

هو يعلم أنها لا تقدر على الاختيار..

منذ نعومة أظفارها التي لم تخشوشن أبدًا...

وهي لا تعرف سوى الضعف والخنوع...

والرجوع.

انصرف عنها وقد شرد لبها...

حتى إذا ما نهضت كان وعيها غائبًا...

ولم تسترده إلا بعد وقوع الحادث.

أنت لي...

هكذا رددت على مسامعها...

وكنت أسمع معها...

ما لم أفكر فيه قبل ذلك مطلقًا...

أقدارنا جمعتنا...

فعلينا ألا نفترق.

9

كنا جالسين على مقاعد متواجهة...

تفصلنا المنضدة...

وكان على وجهها تعابير ما تكابده من إجهاد التفكير الطويل...

وانتهت منها إلى ما يشبه الحسم.

قالت بوضوح:

إن الارتباط ليشتمل على ما هو أكبر من الرغبات والاحتياج...

وما هو أكبر حتى من حكمة الأقدار...

رغم بساطة الشيء...

فإن له اليد الطولى في الأمر برمته...

التوافق...

التوافق الحقيقي وليس هذا الشكلي... الخدّاع...

التوافق الملموس...

الذي فيه حرية اختيار..

وثبات...

ويقين وقوة.

كنت أعلم أن مهلة ردها على طليقها لم تنته بعد...

لكنني قرأت بعينيها رفضها له...

وقرأت أيضًا رفضها لي...

كان الأمر جليًا قاطعًا.

في أدب وامتنان...

اعتذرت لها وانصرفت...

إلى حيث لم أرها بعدها...

بقيت مفردًا في البيت لأيام...

حاولت أن أقنع نفسي بأنني أسأت التخطيط

وتصرفت بعشوائية غير مدروسة...

فجانب الصواب حساباتي هذه المرة...

و بكل بساطة عليّ أن التفت إلى ما بعدها... من مرات.

استعلمت بعدئذٍ من أخي عن موعد سفري...

متجاوزًا ما كان...

أغرقت نفسي في تفاصيلها البسيطة.. المملة...

وبدأت أحدد معالم ما سوف يحدث في فترة عملي الأولى بقطر.

لم أجد رحلة طيران مباشرة من الإسكندرية...

كان عليّ انتظار رحلة انتقالية من القاهرة...

أمقت هذا الأمر...

أسرع طريق للوصول بين نقطتين...

الخط المستقيم..

كان أبي بصحبة سعيد في وداعي من الإسكندرية...

تأسى لهيئتي وأنا مقعد...

سألني في لوم لمَ لمْ أنتظر حتى أخلع عن ساقي الجبيرة؟..

لم أجب.

يعرف هو تمامًا أن صوتي من دماغي...

وأنني لا أفعل إلا ما أريده...

وأخطط له جيدًا.

10

بعد الرحلة القصيرة...

كنت أفكر في صالة الانتظار بالقاهرة...

تفكرت في أمي...

وفى إيمان...

تذكرت حديثنا... حول الأقدار...

والاختيار.

ثم.. وأنا أبصر تراقص انعكاسات أشعة الشمس من على الأسطح المصقولة....

تشاغلت عن ذلك باستعادة نموذج حركية الأشياء...

في خطوط مستقيمة... تتوازى أو تتقاطع...

أو في خطوط متقطعة... تنفصل ولا تتصل..

أو حتى في خطوط دائرية... لا تلبث أن تبدأ... فتنتهي...

لتبدأ من جديد...

والاحتمال من ورائها كل ذلك... إنها قد تحمل نوعًا من التخطيط المتقن...

وفى المقابل قد تحمل نوعًا آخر من العبث التام...

ولا يخلو كلاهما من المعنى مطلقًا.

هذا ما أدركته في حيني...

وأنا أنظر لصورتي في جواز السفر...

كنت أبصر بها لأول مرة شيئًا من الذهول والدهشة..

وفى اللحظة التي تخيلت فيها سعيدًا قد أعاد أبي إلى المنصورة...

تحركت من مكاني...

بجوار سلة للمهملات مزقت جواز سفري... وألقيته بها...

وخرجت من المكان...

وسط أمواج الزحام وصخبها.. كان نوعًا من الألفة والهدوء...

لكن سرعتي جعلت من أنفاسي تضطرب...

كنت لا أعلم لي وجهة أنشدها...

ولا أعرف قط أيًا مما سوف أفعله.

****


باب ۱

لم يكن ليساوره أي شك في أنها القبلة.. من هذا الاتجاه.. اتجاه الباب..

فلماذا يكاد يُقتل دون يقينه الآن؟؟... ولماذا ما كان راسخًا كالجبل.. يتلاشى في لمحٍ بالبصر؟؟

سنوات خمس قضاها في تلك المنطقة الموحشة.. ورغم أن الجميع أحبوه؛ فإنه كان ينفر منهم...

لم يكن بغريبٍ عنهم... هو من الحي نفسه، لكن الجهة البحرية.. ومنذ خرج من السجن انتقل للعيش بينهم..

في ذلك الشق القبلي المنعزل.. ليجاور الجريمة والعنف والفساد.. ويتعايش معهم..

كانوا يعلمون كونه ليس بمجرم... كان مدمنًا إذا صح التعبير...

ألقي القبض عليه بكمية من مخدره زائدة على حاجته... كان يدخرها لبعض الوقت... وقيدت القضية إتجارًا لا إدمانًا...

نجح محاميه في تقليص الحكم عليه إلى سبع سنوات... وخرج هو من بعد سنينه العجاف ليواجه ما هو متوقع...

وفاة أمه... وسفر أخته بعد تزوجها إلى حيث يجهل.. وتنكر بقية الصحب وخلان الأيام الخوالي له..

بخروجه.. وهو على أعتاب الحياة.. تلك التي لا يمكن أبدًا أن يقال عنها "الجديدة" وإنما هي البقايا المتهدمة من حياته..

كان لا يفكر في شيء.. عاد إلى البيت فوجد مالكه قد استولى على شقة أبيه.. كان سيرحل إلى أي مكان آخر..

لكن الرجل قال له إن ذلك لا يرضيه أبدًا... وإنه إكرامًا لوالده وأصله الطيب سوف يعوضه عما كان..

فمهما حدث.. الراحل كان صديقه والأقرب منه... وهو لم يستولِ على حق ابنه.. وإنما أخذه بالقانون...

ولظنه أنه لا يظلمه بذلك قط..

الحقيقة أن الرجل قد تأثر بمظهره... ولم يصدق أن الذابل أمامه هو ذلك الولد الشقي في أول الأيام..

الطاووس الذي لم يرتدِ غيره ريشه المعجز والمفاخر.. والذي لم يترك مفسدة إلا اقترفها..

عزًا بالإثم.. ولجوءًا للباطل..

أعطاه تلك الحجرة وطرقتها الصغيرة في منزله البسيط هذا... ولم يطالبه بأي أجر محدد..

وأكثر من ذلك أنه ساعده في شراء فرشٍ صغيرٍ كان صاحبه يملأ عليه الولاعات الفارغة من الغاز..

ويبيع بطاريات الساعات.. وبعض أنواع السجائر المُهرَّبة...

كان أول ما فعله أن امتنع عن العمل في السجائر والولاعات.. وكان يضحك في ذاته لأنه ليس بأهل أن يجاهر وسط جيرانه بأن التدخين حرام... وليس عليه أن يسأل زبائنه فيما سوف يستخدمون ولاعاتهم..

كان قد تاب وأناب في فترة حبسه وعزلته.. بعد أن تعافى بدنه وشفيت روحه من الإدمان..

أطلق لحيته.. وانتظم في الصف..

لم يكن الأمر مجرد ادعاء وظاهرية.. لكنه كان يشعر بيأسٍ شديد.

كان يضحك في ذاته أيضًا حين يذكر كونه انحرف للا سبب.. واستقام أيضًا للا سبب..

وكان ضحكه يشتد حين يرى الناس من حوله؛ رغم أنهم يدركون حقيقته

سواء من سمع عنه أو من سمع منه... فإنهم يعاملونه على أنه شيخ صالح... ورغم أنه لم يقرب أي مزار مقدس مما تُشد إليه الرحال... وحتى المساجد الكبرى لم يعرف لها طريقًا قط..

فإنهم لقبوه بالحاج.. الحاج سليم.

لم يكن هو بالزاهد... فقط لم يجد حوله ما يشتهيه..

كان يعمل طيلة النهار... وكان الانتظار هو حرفته.. لم يكن الناس من حوله في حاجة إلى

الأقلام ولا الكتيبات ولا المسابح.. ولا حتى الإبر والأمشاط والقطع البلاستيكية البسيطة...

بضاعته كانت غير مطلوبة... لكنه لم يفكر في الانقلاب عليها.

كان رزقه يصل إليه... ولم يذكر أنه احتاج في يوم.. وكانت أموره كلها عادية...

حتى أصابه الوسواس القاتل...

أين هي القبلة؟؟

كان يصلي.. وكان الوقت فجرًا... وقرأ وأحسن التلاوة.. وأطال..

ثم تفكر... أينما كنتم ثم وجه الله... صلاته ليست باطلة... لكنه حقًا لا يعلم أين هي القبلة...

في بيتهم القديم كان أبواه يصليان فيٍ هذا الاتجاه... اتجاه الباب..

وهنا هو لم يفكر طويلًا... وضع سجادة الصلاة بالطرقة الصغيرة... حتى لا يمر من عليها من دون أن يصلي...

الآن وفقط هو يسأل في بساطة تامة... أين هي القبلة؟...

والأمر يسير... نزل إلى الشارع متجهًا لعمله... وبدأ يرسم في ذهنه اتجاهات المكان..

وقياسًا على وضع القبلة عند البيت القديم توصل إلى اتجاهها حيث هو الآن...

وكان ما هو عليه يبدو صحيحًا.

لم تكن تلك البقعة العشوائية لتعرف وجود المساجد ولا حتى الزوايا الصغرى...

الناس بها مسلمون.. لكن لا يدركون ذلك قط... إذ ربما لو كانت لهم أوراق رسمية...

لعرفوا من خانة الديانة كيف هو ما عليهم اعتناقه..

خليطٌ من العشش والبيوت الهزيلة.. الآيلة للسقوط رغم حداثة بنائها...

الرجال بها من منهم ليس فردًا في عصابة للسطو أو الإتجار بالمخدرات... فهو هارب من القانون..

أو مدمن عاكف على أمره للنهاية...

والنساء فواحش... يتناسلن من حيث لا تعلم أي منهن أبًا لأبنائها...

إلا فيما ندر.

لو سَأل أيًا منهم لاعتُبر مجنونًا... من يسأل من؟؟

لكنه فعل ذلك بعد أن نزل من بيته في صلاة الظهر... عاده الوسواس مرة أخرى...

أين هي القبلة؟؟... ما أعياه أنه كان يجاهد في تركيزه وإبعاد الأمر عنه... ثم يكتشف أنه لم يصنع جديدًا..

السؤال راسخٌ أمامه... يتجدد من حيث تلاشى... يولد من موته.

العجيب أن جميع من حوله أعطوه مع ابتساماتهم الساخرة المتعجبة.. إجابات متناقضة...

كل في اتجاه مختلف عن الآخر... ولكنه لم يبتسم لجهلهم كعادته من قبل...

فقط نظر لبعيد...

إلى خارج نطاقه القريب... ترك أشياءه البسيطة على قارعة الطريق... وهمّ باللحاق بالعصر..

في مسجد الجهة الأخرى الكبير.. سيدي عماد الدين!

تردد في الدخول وهو بالباب... رغم تعاطفه.. يخشى الصلاة في المساجد التي بها أضرحة...

رغم أنه تنسم أنفاس أبيه العطرة، ذلك الذي كان قلبه معلقًا بهذا المكان.. لم يدخل..

وتوجه إلى زاوية قريبة في نفس الطريق... وصلى فيها... ثم اقترب من الشاب الذي أمّهم في الصلاة...

وسأله... كيف يعرف القبلة مهما تنقل ما بين الأمكنة؟؟؟

الشاب التقي الورع كما ظهر له... لمس شيئًا بداخله... ففي البداية شرح له أن اتجاهه يبدو صحيحًا...

ثم طلب منه أن يبعد عنه تلك الوساوس... وألا يلقي لها أي بال...

الأمر لا محل للبلبلة فيه... والشك ليس بالأمر المحمود ولا بالمستحب...

ولا يجب ترك تلك المداخل مفتوحة للشيطان... هكذا.

خرج من عنده وهو يستعيذ بالله... كان يودّ لو شعر بالراحة... لكنه استسلم للقلق...

هل هو تاب حقًا؟؟ وهل قبلت توبته تلك؟؟

أضحت فروضه معاناة جمة... لا يكاد يفقه ما يتلوه فيها أو ما يدعو به...

لم يعد منتبهًا لعدد ركعاته أو سجداته... هل ختم الصلاة بصورة صحيحة... أم أنه نهض من دون أن يختمها...

فقط السؤال نفسه يصعق روحه... ويعصف بوجدانه...

أين هي قبلتك؟؟

أيام مضت متلاحقة وحاله تزداد سوءًا..

دائم الشرود... دائم الوجوم... لا يذوق للنوم طعمًا قط... ولا يكاد يدخل جوفه إلا الماء...

كأن له ملوحة دمعه الغزير...

عيناه صارتا إلى ذبولٍ وضوؤهما بات خافتًا..

وكان يسير بين الناس من حوله كأنه في عالم آخر.. يكلمونه ولا يسمعهم... وحديثه عندهم غير مفهوم...

في اللحظةِ التي شعر بكونه ضعيفًا متخاذلًا...

لم يقوِ على المسير... واشتاق إلى أيام الضياع عبثًا وهباءً منثورًا...

كان يقاوم الوهن بداخله... وحينئذٍ.. فكر في الشدة بعد اللين الطويل وعهده البائد...

ولذلك أضحى لا يخرج عن بيته مطلقًا...

لم يفكر في عمل أو عيش... فقط... بقى يصلي.. ليل نهار بطرقته المواجهة للباب..

كان يقف بالساعات من دون أن يدرك هل حقًا قد قرأ السور الطوال التي حفظها مؤخرًا..

أم أنه كان صامتًا؟؟؟

كان يركع ليدعو فتبتل الأرض من تحته بدموعه وصوت حسرته وضيقه يخرج بالكاد...

حشرجة لا أكثر...

وكان لا ينتبه مطلقًا لأصوات الطرق على بابه التي تكررت من جيرانه الذين افتقدوه..

وخشوا عليه الموت... أو أن يكون قد أصابه مكروه...

كانوا ينصرفون عنه إذا ما سمعوا تكبيراته الهزيلة أو حتى سعاله البائس.

سقط مغشيًا عليه...

وأفاق بعد حين.. ثم تفكر... هل من مكروه أشد مما كان فيه؟؟

شعر بنوعٍ من الطمأنينة رغم جميع ما كان... وشعر أيضًا بضياع الوهن من أوصاله...

جلس إلى الأرض كمن يخط بها شيئًا... وطالت جلسته...

ثم قام ليصلي...

وحين عاوده الوسواس... ختم صلاته وهو واقف... كان يدرك أنه أنهى الفاتحة...

كان يدعو ويُؤمِّن على دعائه برجاء المخلص.

حين توقف كان يتمتم... ربما كان يستأنف دعاءه...

فتح بابه... وهرول بآخر ما لديه.

ولم يعد مطلقًا حيث كان...

لكنه كان في طريقه إلى الوصول.

****

نهار خارجي..

1

هاجس أن تلتقط عدسة المصور الخبيرة صورتي... كان رفيق خيالي...

حلم آسر سكن حنايا القلب ولازم لفتات الأعين المشتاقة..

كنت أعلم أني أفتقد الوسامة وحسن الطلعة كما يقولون... لكنني كنت غير مكترثٍ لهذا...

يقيني بأن ما سيكتب تحت الصورة سوف يحمل الأهمية القصوى..

اسمي... مراد عزيز.. ومن تحته خبر عن آخر أعمالي وتصريحاتي...

والغلاف سيكون للكواكب... أو لأخبار النجوم.

حدث ذلك بالفعل... لكن مع اختلاف بسيط...

إن الغلاف كان للجريمة..

وأخبار الحوادث.

2

حبيبتي...

لو كانت لي حبيبة.. لكان أكثر ما يستفزها فيّ كوني أجاهر بعشق غيرها..

حتى يدرك الجميع ذلك بجلاء.

"مراد مجنون سينما..."

عالمه فيلمي بحت...

كأن يومه هو السيناريو المكتوب بحرفة وعناية فائقة... والمنفذ بدقة

متناهية...

والمبهج مهما كان محتواه.

ما يعرض أمامه له السطوة والحوذة..

يرتفع معدل نبض القلب... ويزداد تلاحق الأنفاس... ما بين سكون الظلمة وضجيج الهمهمات..

يكون التوق والشغف... لحظات ويكون التجلي... والوصال...

كنت أحلم بأن أكون صانع كل هذا... أن أتمكن من ذلك الامتلاك الحريرى.. والنفوذ النبيل..

ترجمة رؤاي وإشاراتي تبكي هذه وتضحك ذاك.. وتخطف أبصار هؤلاء..

كنت أنتظر فيلم أيامي الذي لن يأخذني منه حتى الموت.

3

ما أطول الطريق...

كنت أركب حينًا وأسير أحيانًا..

كنت أستغل الوقت الطويل في التفكير في حكي الصور ومعالجة ما تطرحه الأذهان..

وكيفية تصوير أهم المواقف والمشاهد.. وطرق تتابعها..

كنت أعيد تصور آخر ما شاهدته من إضاءة وظلال.. آخر ما أنصت إليه من موسيقات..

ومن صمت.

صحيح أنني قد فاتني الكثير والكثير من كلاسيات الأعمال المبهرة

الأخاذة...

لكنني كنت أتدارك الأمر بجدية...

فأتابع أغلب البرامج السينمائية المهمة وعروضها المميزة... ونشراتها القيمة..

وأشترك في صالونات جزويت ومركز الإسكندرية للإبداع...

ونادي السينما.

بالطبع لم يكن ليرافقني في ذلك أحدٌ قط أو يوافقني على أي منه.

كنت وحدي

دائمًا كنت وحدي

ولهذا لم أكن بحزين على دخولي السجن...

سجني الحقيقي كان في الخارج..

وليس في زنزانتي بسجن الحضرة...

تلك الواسعة... كثيرة الرواد.

4

أن تصنع بطلًا في أوراقك ونصك...

أمرٌ يسير..

أن تجسده أمام العدسات... وتجعل من أيامه ملحمة كبرى...

أمر مألوف...

قد تجعل لكل أعمالك المكتوبة والمرئية أبطالًا فوق نطاق العادة...

لهم انتصاراتهم وانكساراتهم..

ولهم شعبية وحب لا مجال لمقارنتهم بآخرين دونهم...

لكنك قد تبقى في الواقع بعيدًا جدًا عن دائرة البطولة...

حتى في أوراقك ونصك...

وفيلمك الخاص.

مشهد واحد

ليل داخلي

المكان: كشك صغير لصياد بالمكس... ملاصق لبيته... ومفتوح عليه وعلى الشارع...

خشب الكشك قديم ومتهالك؛ لونه الأخضر يميل الآن إلى البني أو الأسود... وبلاط أرضيته به تكسير واضح، وعليه كثيرٌ من التراب بفعل النمل الأكول.

الإضاءة صفراء من لمبة معلقة إلى جانب بسلك أبيض؛ يظهر بوضوح عليه وعلى اللمبة تراكم فضلات الذباب ولزوجة الأجواء المحملة بالغبار.

الزمان: قبل الفجر بقليل... حيث لا تزال الظلمة حاكمة... والشمس أمامها الكثير لتطلع...

تظهر تيترات البداية بسيطة وخطها نسخ... على الصوت الصادر عن حركة مجاورة تبتعد...

وخطو متكاسل... وخرير ماء تبول... ثم ما تبعها من تحركات بالصرف... والغسيل الصباحي للوجه والأيدي...

تكون الكاميرا ثابتة على دراجة منهكة عليها الصدأ جلي... مركونة إلى جوار أشياء قديمة وعدة صيد...

تركز الكاميرا على عجلاتها التي لا تتحرك..

قطع.

****

5

"شط منسي"

فيلم...

مجرد فكرة بسيطة ساورتني دونًا عن غيرها المتلاشي كفقاعات الهواء.. ظللت طويلًا بمعزل عما يمكن أن يختمر بذهني المعتل...

كنت آكل وأنام وأستخدم دلو البول في الزنزانة... وأقف طابورًا ممتدًا كي أتمكن من إخراج فضلاتي البائسة..

كنت أخرج إلى حديقة السجن وإلى الفناء... وكنت أرقب منها السحائب في أطراف السماء وكذا العصافير المسافرة...

كنت أحيانًا بعيدة أذهب إلى المكتبة... كنت أشاهد أجزاءً من أفلام يعرضها التليفزيون للمرة المليون...

وكانت مملة رتيبة...

كنت بحد السنوات العجاف...

أستعد للخروج.

مشهد اثنين

ليل داخلي

المكان والزمان ذاته

الشخصيات: سالم الصياد "سِلومة"

يأتي صوت سلومة يسعل بشدة ويتخلص من بلغم ثقيل...

من دون أن يظهر وجهه؛ يكون قد وضع شنطة الصيد "الغلْق" خاصته على آخر الدراجة وأعدها للحركة...

وهو يغني وصوته أجش... يستحيل عليه محاكاة أم كلثوم...

(حتى الزمان اللي كان عطفك يعيني.. يعيني عليه

خلاني أرضى الهوان واسلم الروح إليه

وأسأل عنك

والقلب كان غضبان منك

وأحمل همك وأنا اللي طول بعدي ما همك

وأبات أصالح ف روحي

عشان ما ترضى عليك

من بعد سهدي ونوحي ولوعتي بين إيديك...)

وهو يفتح النافذة الخشبية إلى الخارج "تفتح من أسفل لأعلى" يؤخذ قليلًا ببرودة الجو...

ويظهر وجهه على الضوء الأصفر... بينما لا يزال يهمهم بالأغنية...

قسماته منحوتة... ولحيته شعرها كثيف وبخاصة عند الذقن...

شاربه يخط فيه الشيب...

يخفت صوته تمامًا...

وينظر إلى جانبٍ حيث الفنار القديم والكوبري الواصل إليه قد تهدم أوله...

ينصت إلى الشاطئ للتأكد من عدم وجود صوت سوى للبحر بأمواجه الصاخبة...

يعدل رقبة فانلته البنية الطويلة كأنه يتخلص من ضغطها الخانق عليه

ويضبط الصديري الأزرق البالي عليه...

يفتح الباب وينسل إلى الخارج...

قطع.

****

6

كنت أقول دومًا بأن علاقتي والدراسة كانت مثل زواج الصالونات..

لم أحب كليتي

ولم تحبني هي الأخرى،

وإن التزم كلانا بالآخر.

لم يكن العيب قطعًا في العلوم.. العيب بداخلي وفقط..

لو كنت أدرس أدبًا أو فنًا.. لما حققت فيه أي نجاحٍ يذكر.

كنت أبحث عن طريقة غير محددة للبوح عن المكنون.. كنت شاعرًا بأسى ومرارة..

وكنت أغالب ذلك بشيء سمعته يومًا ما..

من أن الحلم.. هو استمتاعٌ مسبقٌ بأسعد مما هو قادم.

مشهد ثلاثة

ليل خارجي

المكان: طريق... آخر الرمل وأول الإسفلت

الزمان: تاليًا لما قبله بدقائق قليلة

أصوات الليل الموحشة "كالصراصير أو الكلاب"...

وتتقاطع في ندرة أصوات اندفاع عربة أو اثنتين على الطريق.

الدراجة شديدة البطء فوق رمال امتداد الشاطئ الناعمة تلك..

يجاهد سلومة من أجل دفعها..

يسعل مجددًا ويتخلص من بلغمه الثقيل..

وهو ينظر من جديد إلى الفنار واللسان المهدم؛ لكن في أسى يتضح..

يشعل سيجارته ويلقي بعود الكبريت إلى الأرض..

يأخذ منها نفسًا عميقًا ويعتلي الدراجة..

ثم ينطلق في سرعة مستغربة..

يهمهم بنغم الأغنية "غلبت أصالح ف روحي" بينما السيجارة في فمه..

ويداه ممسكتان بمقبضي الدراجة... وإن بدا عليها اضطراب دخول البرد على الأعصاب...

قطع.

****

7

فكرة..

فكرة ساذجة بسيطة.. لكنها استهوتني.. أمسكت بورقة من دفتري في أثناء محاضرة الطبيعة..

وشرعت في التدوين..

بلدة من الريف في عصر ما قبل الدولة الحديثة؛ حكمها فصيل سموا أنفسهم الولاة...

هم الذين تخلصوا من بقايا المماليك الطغاة

واتسموا بادئ ذي بدئ بميلهم إلى العدل والمساواة... بيد أن آخرهم أظهر ميلًا عن ذلك..

الحق.. أن الميل بدا ملازمًا لتحركهم منذ بدايته... شيئا فشيئًا..

اتسعت الفجوة.

بعد نوع من إعادة الحقوق لأصحابها.. وبعد قليلٍ من التحرر وراحة القلوب والأفكار.. عاد الأمر لمبتداه..

ساد الظلم؛ والفساد طال جميع الأرجاء..

المعالجة كانت غير مقنعة بالمرة؛ وفكرة الرمز بمن سمّيته "الولي" كانت فجة في مخيلتي

وضحكت في أعماق أعماقي... وقلت إنني بنهاية اليوم قد ألقي بنفسي عند كازينو الشاطبي

وأنعم بما تحت سطح البحر من جمال أبدي.. وراحة..

لكنني أقلعت عن كل ذلك لما أبصرتها...

مشهد أربعة

ليل خارجي

المكان: شاطئ صغير.. صخري في أغلبه..

من أثر تراكم الفضلات المتطايرة والبقايا به؛ يتضح أن أحدًا كثيرًا لا يرتاده...

هو محددٌ من جانب بسور شركة البترول... القاطع الممتد لأول الطريق...

ومن الجانب الآخر تحده بيوت مبنية على صخرٍ متوغل في المياه... أسفلها تآكل وطبع بها خضرة الطحالب وعطنها...

الزمان: لا يزال فجرًا من دون الشروق

تتابع الكاميرا سلومة عن كثبٍ وهو في تعجل من أمره ويتصرف بطريقة المعتاد على الشيء دومًا...

ينحي الدراجة جانبًا... ويخلع عنه الصديري... والفانلة...

ويتركهما على الأرض... بجوار نعله الممزق...

يخرج من "الغلّق" شبكة الصيد... يفردها....

ويمسك بزمامها من الناحية المعقودة بها أقراص الفلين...

يسير حذرًا من الانزلاق على الصخور الملساء بفعل الطحالب المتراكمة...

تصفر في أذناه الرياح الشديدة...

يهز رأسه مؤمنًا على شيء ما بلا تركين..

وفي الماء يتحرك برشاقة لا تتناسب مع سنه نوعًا ما...

بعد تبييت الشبكة "فردها بالعرض في البحر".. يغطس تحت سطح الماء...

يبتسم ويكرر الأمر مرات عدة... يعجبه ذلك...

ثم يتوقف يلتقط أنفاسه...

يبصر القمر رغم ما حوله من غيوم... ولم يكتمل بعد...

إلا أنه في كامل الجلال والبهاء...

يحاول معاودة الغناء... "حتى الزمان اللي كان..."

لكنه يسعل من جديد بشدة..

قطع.

****

8

حياة...

لم تكن مجرد وجه جميل سرق بصري وفقط.. بل إنها كانت تحمل ملامح هي الأكثر تعبيرًا ودلالة فيمن رأيت...

بفضلها انتظمت في حضور محاضراتي... وإن لم أخبر منها سوى وجود حياة...

كنت أترك عيني إليها... ومن دون طول تفكير تتحرك يدي بقلمي فوق أوراقي..

وما كنت أراه عبثًا وحمقًا.. أصبح كل شيء بالنسبة لي، ولم يمر الشهر إلا وكنت قد انتهيت..

وأكثر ما في بالي تحديدًا ما سوف يكتب على ملصق الدعاية من أن النص اسمه "لما يموت الولي..."..

وأن دور البطولة فيه "صابرة" سوف تلعبه حياة حشمت...

قبل أن أذهب إليها بأوراقي وطريقتي التي يختلط فيها الجنون بالتسول..

كنت قد وقفت على أغلب فريق عملي وبخاصة شريكها الأساسي فيه...

"الحسيني"... زوجها...

كانت في شدة الذهول... وعلى وجهها ارتسم النفور جليًا...

وأنا أعرفها بنفسي في عجالة وأختبر تعبيراتها وهى تسمع كلمات مثل

كاتب مبتدئ...

أحلم بالإخراج...

عملت على النص طويلًا...

وبدأت باختيارك للبطولة.

لو لم أكن قد انصرفت عنها في لحظة خاطفة...

لكانت.. أغلب الظن.. قد ألقت بأوراقي البالية في وجهي..

وتركتني.

مشهد خمسة

ليل خارجي

المكان ذاته والزمان لم يبتعد كثيرًا

يفرد سلومة ظهره على بقعة رملية صغيرة وسط الصخور

يصنع من نعله وثيابه وسادة... وبينما يتلمس بأطراف أنامله شعيرات مبتلة بصدره العاري...

يتحدث إلى السماء..

الريح حلوة النهارده...

والبحر كأنه ناوي على جبر خاطرنا...

إياك تهمد الست إنعام... والواد الجزمة حسن ده يفك بوزه...

الواد وامه بقا ماوراهومش غير الزن والعكننة...

"وهو يضحك متهكمًا"... لو البحر يدينا ؟!... ياااااااه

كنا جيبنلها ضرة الشايبة الناقصة... وكنا خلفنا منها كمان اللي يدخل الـ" ـــ" التاني ده الجيش..

ويخليه يسترجل شوية بدل طراوة الحريم دي..

"وهو يتنهد"

بس هوه البحر يدينا....

ثم يشرد ببصره...

مزج.

مشهد ستة

ليل داخلي...

المكان: غرفة المعيشة ببيت سالم الصياد...

أثاث قليل وقديم... كنبة في طرقة ضيقة... وكليم لا يغطي الأرضية بأكملها..

ودولاب صغير يحمل التليفزيون... واللمبة الصفراء تنزل من أعلى السقف بسلك أبيض متسخ.

الزمان: الليلة الماضية

الشخصيات: سلومة – إنعام زوجته تجلس على الأرض بمدخل البيت عند الباب تشرب الشاي..

سميحة ابنته ترضع صغيرها سالم في حزن وصمت – حسن البحر يجلس إلى جوار أبيه سالم الكبير

سلومة يرقب مباراة للاتحاد ويحتسي شايًا...

سلومة: معلقة سكر للعلقم ده يا ولاد الكلب...

تنهض إنعام بينما يتحدث حسن كأنما يلح في الأمر

حسن: يا ابا... يا ابا البلد دي مش بتاعتنا

تضع إنعام معلقة السكر في كوب الشاي بيده وتقلبها وتجلس؛ بينما هو قد أحال بصره من المباراة إلى وجه ابنه..

سلومة: يعني إيه يا روح أمك؟؟؟

حسن: يعني نسافر... نهج... نطوف بلاد ربنا الواسعة..

نعيش زي الخلق ما هي عايشة...

سلومة: واحنا مش عايشين يا وله؟؟

حسن: يا ابا مانت شايف الحال

سلومة: هوه احنا يعني كنا قصرنا

حسن: العين بصيرة يا ابا

سلومة: بس إيدنا لسه ما قصرتش يا ابن إنعام

حسن: العفو يا ابا... بس الحال يعني مش هوه

وانت معصلج ف بيعة القارب مع إنها...

سلومة: مع إنها إيه... مع إنها إيه ؟!... إنت بهيمة زي أمك تمام "تنظر له

إنعام دهشة ومن دون أن يلتفت هو إليها يكمل":

يا طحش انت... مش القارب ده مرهون عند سيد زفت

بيسدد ديون جوازة البرنسيسة أختك اللي رماهلنا الكلب وهرب هي والحنك اللي معاها...؟؟

حسن: ما انت برده يا ابا اللي هيجت سيد بسبب عصلجتك ف جوازه من البت..

سلومة: سيد امك انت... كنت عاوزنا نرميهاله ف حجره ونجري... صح؟؟

حسن: ما قلتش كد يا ابا؛ بس ما كنتش تجرّسه يعني...

سلومة: واني ما نديش بنتي لابو قرون أبدًا...

حسن: اهو خدها ابو جناحين وطار..

سلومة: طار والا ما طارش؛ ايش دخلك انت... هوه انت شايل هم إلا لمزاجك...

البحر واهو ممنوع علينا... والـ"ـــــ" حكموا الشط بالقوارب امات مواتير...

والداير بات ملكهم بالدراع ووضع اليد... كل عيل ابن امه رجله شالته ورفع السلاح على رقابي الخلق..

حودة والنن والكلب صُنقر... ديك النهار حاوطوا عمك على السمان وقلبّوه... خدوا اللي ف جيبوه...

واني مفيش ف جيوبي شيء... ما بقاش حيلتي غير حتة الغزل اللي بره... وما ينفعش نسيبك مدرستك ونوقفك للصيع دول...

علشان كده بنشيلها على الله يوماتي ونفر على آخر الدنيا... علشان ينسوني واطلع من نافوخهم... هما وغيرهم...

واما نرجع...

أما نرجع طلعان "ــــ" بنلاقيك قاعد على "ــــ" جنب امك وبتتقمز

يا حيلتها...

حسن: حانريحك يا ابا... حنشيل عنك الحمل ده

سلومة: حتهرب؟

حسن: حنسافر... حنسافر اليونان أو اطاليا...

نشقى ونلاقي... ونغنغ الكل..

سلومة: ينهض ليغلق التليفزيون وهو يقول

هأ... الجعان بيحلم!

مزج.

****

9

قالت لي.. لست خبيرة..

لكنني ألمح بين ثنايا كلماتك صدقًا معبرًا.. لن أسألك الآن لماذا أنا تحديدًا.. التي اخترتها..

لدور تلك السيدة المسكينة.. يقهرها الضعف والفقر.. وتغتصبها الجهالة دونما رادع..

لكنني سوف أقول لك بحزم.. مجرد كوننا بدأنا ما تريده لن نتراجع من دون تنفيذه.

كنت سعيدًا بصدق حدسي نحوها.. ولم أستغرب كون حماسها نحو العمل وعزيمتها أكثر مما لدي سواء في مرحلة تجميع الشخصيات..

أو التدريب على النص والبروفات..

حتى إن فكرة أن نعرض في الطريق الواصل بين مباني كلية العلوم والزراعة ونستغل درجات السلم الكبيرة هناك كمسرح..

يشبه نموذج المسارح اليونانية القديمة.. يجلس المتفرجون عليها.. كانت فكرتها.

لا أعلم لماذا لم أعشقها..؟

كانت أحاديثنا غاية في العذوبة.. وتفاهمنا كان بعيد المدى..

تشاركنا في الحلم ولم نبتعد عنه..

كنا سواء في اجتهادنا.. والبقية أحوالهم عادية.. إلا "محمد عمر"..

هو الوحيد الذي كان يلحق بنا أينما اندفعنا أو كنا.

ذات مرة قالت حياة له:

لم أعرف لماذا اختارني مراد لدوري.. دونا عن غيري ممن يصلحن له..

لكنني أجزم الآن أن أحدًا غيرك لن يؤدي "الحسيني" كما تؤديه..

لم أعتقد أنها كانت تحبه.. وإن بدا كوني قد خشيت ذلك.

مشهد سبعة

ليل خارجي

المكان: الشاطئ مرة أخرى

الزمان: عودة بعد الشرود القليل السابق

ينتبه سلومة على رغبة حادة في التبول...

ينهض مسرعًا إلى الجدار... يتعمد الابتعاد عن الشاطئ...

يبتسم حين يدرك استمرار تعرضه لنوبات الانتصاب الصباحي...

ثم يعلو صوته بالضحك وهو يدندن "وأسأل عنك.. والقلب كان غضبان منك..."

يشرد مجددًا

مزج.

****

10

رغم ما يمكن تسميته بالنجاح.. ورغم الصيت الذي ذاع قليلًا بين الزملاء..

ورغم ما كان في العام الذي تلا "لما يموت الولي.."

النص الذي يتحدث عن تجبر الولي "المبروك" وفساد ولديه "همّام" و"تمّام"..

"همّام" الذي استولى بنفوذ والده على أغلب الأملاك في القرية.. ووضع يده عليه..

و"تمّام" ذلك الماجن كثير الفضائح.. الذي يعده أبوه للجلوس مكانه.. بينما يعرقل ذلك كونه اغتصب "صابرة" المسكينة.

فأثار ذلك هياجًا وثورة... وإن لم تكتمل.

تعرفنا بعدئذٍ على أفرادٍ من قسم المسرح بكلية الآداب، واتفقنا على التعاون وتقديم أعمال من تراث المسرح المصري أو جديدة من تأليفنا..

وبدأنا في ذلك بالفعل.

إلا أنني كنت أفتقد شيئًا ما..

لم أكن أدركه جيدًا.. لكنني قلت لحياة إجابة عن سؤالها ماذا أفكر في تقديمه بعد فترة توقف امتحانات ربع السنة..

إنني لا أرغب في تقديم شيء قط.. وإنني أبحث عن نوع من الهدوء المصاحب.. أو ربما المصداقية لما كان..

واختلفنا يومها لأنها أنكرت عليّ ما أشعر به حقيقة..

تمامًا كما اختلفنا حين حاولت هي ومحمد عمر اصطحابي للتظاهرة الكبرى أمام مجمع الكليات..

التي قالا إنها تندد بالأحداث القمعية الإجرامية التي واكبت مطالبات تعديل الدستور..

قلت لهم صراحة.. إنني لا أعرف عما كان يتحدث الدستور قبلًا..

وكيف أصبح..

وإنني لو كان يسوءني ما كان عليه أو ما آل إليه.. لما تظاهرت..

وإنما كنت لأقول ما أريده في عمل طال أو قصر... قرب زمنه أو ابتعد.

لم أستجب لمحاولاتهم البائسة في إقناعي... وتركتهما ينصرفان عني لموعدهما..

وبقيت مكاني... حتى آخر اليوم.

لما عادت حياة وحدها.. تبكي..

حتى وقفت أمامها فصرخت بوجهي... إنهم قتلوه..

قتلوا الحسيني.

كنت قد تاهت نظراتي بوجهها المكفهر الفزع..

حتى غامت تمامًا.

مشهد ثمانية

ليل داخلي

المكان: البيت

الزمان: الليلة الماضية قبل النوم مباشرة

سلومة يجلس فوق سريره في ظلام الغرفة... يسند ظهره مشعلا سيجارة...

يحك قليلًا في ركبته عند موضع خرق في سيالته حاكته له إنعام قبلًا... وتمزق من جديد... "يظهر ذلك من أثر الخيوط المقطوعة"..

تصل أذنه كلمات متقطعة من حديثٍ يدور بالخارج بين إنعام وسميحة...

يحاول أن يتجاهل ما يسمعه من جمل قاسية...

سميحة: اني مش حنقضي بقيت عمري اني وضنايا عوالة عليكم

– كفاية على أبويا لحد كده

– اني حننزل من بكرة المشغل مع البت صفاء

– الراجل كبر ومحتاج راحة مش بهدلة وقلة قيمة

يصرخ فجأة كالمحتد: يا بت

فتهرع إليه إنعام التي تتفاجأ بكونه لا يزال مستيقظًا

إنعام وهى تغلق الباب وتشاور لسميحة بالذهاب للنوم: انت لسه صاحي يا خويا

لم يرد على سؤالها ولا حتى بصوت خفيضٍ مماثل..

تقترب مرتبكة من زر النور لتشغله؛ فينهاها بلا كلمة أيضا "فقط صوت اعتراض عالٍ"

وبعد قليلٍ يظهر على ضوء خارجي خافت مدى اقترابها منه في الفراش

تتمدد هي إلى جواره؛ فينتبه إلى كونها تطلبه؛ فيعتدل للدخول فـ النوم ويطفئ السيجارة معطيًا إياها ظهره..

تمد يدها من ورائه كما لو كانت تحتضنه..

يعتدل لها مرة أخرى معيدًا يدها إلى حيث كانت..

يتمتم: حنسعى بكرة من النجمة... والدنيا رصاص

ومش حنقومك يعني تسخني لي سطل الميه بالعنية...

قبل أن يكمل كلامه كانت قد أدارت وجهها عنه... وأعطته ظهرها بالكامل...

مزج.

****

11

لم يعلق بذهني بعدئذٍ سوى أمر واحد.. أني لا أستحق شرف ما لقيه..

لا أستحق أن أنال المصير ذاته..

فأنا-أجبن من ذلك.

كنت أود لو قلت هذا لحياة.. لكنني لم ألقها قط.. علمت أنها قد سقطت مغشيًا عليها..

وأنها لزمت بيتها بأمر الطبيب..

لكنني قلت هذا في تحقيقات أمن الدولة.. تلك التي كانت معنا بعد أن قمنا بوقفة احتجاجية بمدخل الحرم الجامعي..

حاملين صور محمد عمر نندد بما ارتكب من جريمة قتله ونلعن قاتليه..

ونطالبهم بأن يطلقوا علينا الرصاص المطاطي ذاته الذي أودي بحياته.

كانت للمحقق هيئة وقورة... ونبرة حاكمة.. متهكمة..

بعد أن فرغ منا واحدًا تلو الآخر... جمعنا أمامه... وقال:

لستم مخطئين... لكن الحق ليس معكم..

ما كان لزميلكم قضاء لا يمكن اتهامه بالإجرام.. وحتى إن اتهم بالإجرام لا أحد يثبت ذلك..

ما هو مثبت فعلًا من إجرام.. هو التجمهر وإثارة الشغب وأعمال العنف وإتلاف الممتلكات العامة والخاصة...

ثم أشار إلي وقال:

زميلكم يهوى الفن.. وكان تفكيره أن يعبر عما بداخله في أعماله وفقط..

ليته أقنع فقيدكم المستشهد..

وليتكم تقتنعون برأيه... أو ما يقاربه: فجميعكم لستم بهواة فنون على ما أظن..

لكن التعقل فيه السلامة..

كل السلامة.

حين أفرج عنا.. كنت غير راغب بالتحدث لأحد.. ولا حتى حياة..

لم أرها بعد ما كان ليلتها مطلقًا..

لم أكن أرغب في رؤيتها..

أو رؤية أحد قط..

لزمت بيتي..

مشهد تسعة

ليل خارجي

المكان: الشاطئ

الزمان: قبيل الشروق بدقائق

يقف سلومة مستندًا إلى السور حيث تبوّل

من بعيدٍ ترقبه عين المصور وهو شارد بذهنه فوق سطح الماء

يتجهم مرتقبًا

ينظر إلى أول المشرق قد تداخل على اسوداد لونه بادئ الضياء

يظهر من بعيد الفنار القديم

ينتبه هو لنفسه فينظر لأسفل ويزيح بباطن رجله اليمنى الرمال على أثر بوله..

ويبتعد عن السور وهو يفرك يديه ويأخذ نفسًا مشبعًا باليود باتساع صدره..

ينزل إلى الماء فوق الصخور الملساء خطوًا بطيئًا كما المرة الأولى وربما أكثر حذرًا واضطرابًا..

يجمع شبكته

ويرفعها ليبصر ما بها

تنفرج أساريره بعض الشيء ويرفع الشبكة بهمة أكثر إلى ظهره

ويهم بالخروج من الماء في نشاط..

يضع الشبكة في "الغلْق" كما هي...

وبسرعة يرتدى فانلته والصديري وينتعل خفه الممزق..

يبصر ما في الشبكة مرة أخرى ثم يضع "الغلّق" على ظهر الدراجة ويركبها بخفة..

يتمتم فرحًا مشوبًا بطيف الأسى الذي أطال في ملازمته... وبلغة الباعة الممطوطة... يقول:

الدنيس الطاااازة.

قطع.

****

12

كان يأتيني كثيرًا في وحدتي المظلمة.. كان يناقشني.. محتفظًا بحيويته ذاتها وبهائه..

كان يحدثني عن حركة شعبية تلوح في الأفق.. وعن حقوقٍ سوف تسترد بالعزائم والإخلاص لا غيرهما..

لم أكن لأختلف معه الآن.. وأكرر صغائر قناعاتي في حضرته..

لم أكن لأنال من حماسه أو لأواجه ثورية نبرته بفتور وتخاذل...

كنت آنس بصحبته طويلًا..

لكنني كنت أنتهي منها إلى وجعٍ كبير.. روحي باتت لا تطيق الذكرى ولا تحتمل للجرح مساسًا..

جرح الشهيد الحسيني أيوب.. الشهير بـ"محمد عمر"

بت أحمل غصتي من الواقع والخيال على حد سواء؛ من دون أن أحدد بالضبط من الأكثر تأثيرًا على الآخر..

ثم حاولت ـ عبثًا ـ أن أنسى جميع ذلك..

وكنت أمعن أيضًا في تناسي وجود حياة... إلا أنني كنت أشعر بخزيٍ بالغ.. كلما غلبتني ذكراها..

وكنت مستسلمًا لنظرات الرفقة يوم احتجازنا.. تجتاحني بلا هوادة...

وكنت لا أزال أسمع رجع كلمات المحقق..

عن سبيل السلامة..

وجدوى التعقل.

كنت أتقلب على جمار جنهم التي لا تهدأ.

فكرت كثيرًا في الخمر..

حلمت بسكرٍ بيّن.. يفقدني صلتي بجميع ما فات..

تصورت خفة الروح حينئذٍ.. وبدا لي الحل في اللا عودة..

وجدتني فجأة خارجًا من البيت..

لم أذهب إلى بارٍ أو أشترى قنينة أحتسي مرارتها في أكثر الأماكن وحشة ونأيًا على البحر..

تذكرت قصة قرأتها ذات يوم.. عن رجل اتهمه منافسوه بأنه يعرض امرأته على الرجال ليشري مصالحه..

حين علم بقولهم لم يواجههم.. وإنما.. كوّن من جميع زوجاتهم شبكة كان يقودها.. ويعرضها..

لشراء مصالحه.

كان مقصدي مكتبًا صغيرًا.. للأعمال الفنية.. هكذا سماه صاحبه الذي كان يصنع ويروج الأفلام الإباحية..

حين التقيته شرحت له هدفي صراحة.. ورغم اندهاشه من جملة ما عرضت عليه..

إلا انه رحب بالفكرة..

وتعاونا..

كنت أكتب وأنفذ مشاهد جنسية محكومة بسياق درامي..

استوحيت الفكرة تلك ممن قاموا بتجسيد المواقف المثيرة في أدب نجيب محفوظ عقب فوزه بنوبل..

بل إنني أعدت تكرار فكرتهم تلك... ورغم عشقي لأدب نجيب.. فإنني اخترت أكثر ما أحببت من رواياته..

ونفذتها ببراعة شيطانية..

وكان الانتشار..

ما بين أشرطة الفيديو والاسطوانات.. وأجهزة المحمول تحوي المقاطع.. ومواقع الإنترنت تفعل الشيء نفسه..

أذهل الرواج شريكي.. وكان دافعنا للتطور والبحث عن الأفضل..

والرجل بات ينفق وهو موقن بالربح الكبير..

أصبحنا نعتني بالممثلين وأماكن التصوير... وأصبحنا ننتقي الموضوعات..

فلم أقتصر على تقديم معالجات روائية أو أفكاري الخاصة؛ بل أصبحت أقدم معالجات لجميع ما يطرأ..

من قضايا مجتمعية..

أي شخصية كانت تظهر على سطح الأحداث كنت أقدم معالجة عنها..

جميع الساسة والمفكرين والإعلاميين..

جميع رجال الأعمال..

حتى رجال الدين..

لم يكن يردعني كون أحدهم من الأحياء أو من عالم الأموات..

لم أترك شخصًا واحدًا من غير فيلم عن كامل حياته الجنسية وميوله فيها.. وما يشيع عنها

أو ما يفترى..

تحدثت عن الجميع.

مشهد عشرة

الأخير

نهار خارجي

المكان: الطريق الواصل من جهة الإسفلت إلى بيت سالم ومن جهة اليسار الأخرى ينفتح على البحر..

الزمان: أول النهار "لحظات تصاعد الشمس الأولى"

الشخصيات: سلومة – صُنقر "شاب فتي في سنٍ مقاربة لحسن البحر.. له هيئة البلطجية والمجرمين"..

على الدراجة يكون سلومة ممسكًا بالمقبض بيده اليسرى ويحفظ موضع "الغلَق" من ورائه بيمناه...

ينظر إلى صُنقر المستند إلى باب بيت وقد أخذ يعبث في قطعة بوص بمطواة "قرن الغزال"..

يضطرب سلومة ويبطئ من سرعته ويقترب الآخر منه ويستوقفه تمامًا وهو ينظر إلى عينه بصرامة..

ينزل سلومة في صمتٍ عن الدراجة ويستلم مقبضها صُنقر عنه..

ويدفعها سيرًا إلى ناحية البحر ويلحق به سلومة ببطء شديد وهو ينظر

حوله للتأكد من عدم وجود أحد..

عند الشاطئ يرفع صُنقر "الغلّق" ويترك الدراجة تسقط على الأرض..

يجلس القرفصاء ويفتح "الغلْق" ممعنا نظره فيه..

صُنقر: بسم الله.. إيه ده يا عم سُلوم...

ينظر إلى سلومة ليجده صامتًا فيخرج الشبكة عن "الغلْق"..

ويشرع في استخلاص السمك منها في هدوء وانتظام إلى "الغلّق"..

صُنقر: ماظننش يلزمك "الغلّق" يابا... والا إيه؟!

سلومة: انت بتعمل إيه؟!

ينهض صُنقر ويقترب من سلومة حتى يقف بوجهه وفي قوة وحزم يقول: حقي.. فيها لا اخفيها

ومن دون أن ينتظر رده يعود لاستئناف ما بدأه توًا

يخرج سلومة عن ذهوله وتجمده فيندفع نحو صُنقر.. يمسك الشبكة منه ويدفعه للوراء على الأرض..

ويهم بوضعها في شنطته..

يعود صُنقر وقد رفع المطواة في يمناه... فيمسك بسلومة من ذراعه ويثبت سن سلاحه إلى جانبه..

ويضغط قليلًا حتى يمزق جانب الصديري والفانلة.. لكن من دون أن يجرحه بعمق..

ينظر إليه سلومة في لومٍ وقد أخذ عنه الشبكة في بساطة وابتعد..

يقشعر بدنه وهو يبصر صُنقر يمزق الشبكة بسلاحه ويخرج منها السمك ليلقيه إلى "الغلّق"..

غير مكترثٍ بما يتساقط منه في الرمال..

يحاول التماسك حين يلتفت إليه صُنقر: "يتحدث بنوع من الغل ويبدو أثر عنفه في التقطيع على وجهه"..

بشوقك يا غالي...

إياك تكون فاكر إن المُكنة بتاعتك خافية على حد..

القوي يسكت بكيفه ويسيب الكلام لسيفه..

لما فرغ ومن دون أن ينظر إلى سلومة يكمل: آني خلصت...

بالرضا نتفارق ويا دار ما دخلك شر؛ وإلا حا تركب دماغك وتفرد قلوعها؟؟

لا يصله أي صوت فينظر إليه..

يكون سالم جامدًا في مكانه؛ لكن قد ارتسمت بوجهه تعابير الحزم..

يهز رأسه بخفة "كمن استوعب شيئًا" وهو ممسك بجانبه؛ حيث أثر ضغط السلاح عليه..

ويبدو من عبوسه أنه يحتفظ بموقفه الرافض نفسه..

يبصق على الأرض بجانبه..

في بساطة كمن قد أعد التحركات سلفًا... وهو يحرك رأسه تماشيًا مع فعلة سلومة يخرج صُنقر السمك..

ويلقي به تباعًا إلى بعيدٍ في أنحاء متفرقة فوق موج البحر..

ثم يلقي بـ"الغلْق" الفارغ إلى جانب...

وتكون الشبكة الممزقة تحت قدميه بجوار الدراجة وقليل من السمك الذي قد اختلط بالرمال فأهمله.

يأخذ نفسًا عميقًا وهو يدخل سلاح مطواته إلى مخبئه..

ثم ينظر إلى سلومة المتهدم وقد همّ بالانصراف عنه..

يقول: سلام يا راجل يا طيب..

سلومة الجامد في مكانه يبتسم في انكسار إلى قطط بائسة تجمعت حول الأسماك التي وقعت على الرمال..

يتحرك في اتجاهها مقتربًا من الماء.. يدخل قليلًا فيه بقدميه..

ينظر إلى حيث شاطئه المختبئ ليس ببعيد..

ينظر بعينه الحمراء ناحية الشمس التي طلعت أخيرًا..

وفي وضوح النهار يجول ببصره حائرًا ما بين البحر الممتد..

والشواطئ الأخرى..

على صورة تجمع ذلك في ثبات..

من بعيد

تكتب كلمة النهاية.

قطع

****

13

كان عم سلومة يضحك وهو يعد أشيائي.. لما قال إنني بمجرد الإفراج عني... ينبغي أن أعود لحضن أمي وإخوتي

وأقلع عن جنوني هذا وقلة حيائي..

بادلته الضحكات الصافية.. فأنا معه أشعر بروح أبي الذي أفتقده منذ صغري..

بعد أن انتهى.. دنا مني وقال غاضبًا.. لماذا أنا هكذا غير مكترثٍ دائمًا بما فعلته؟؟

كان يعلم أني فقدت إحساسي ودمائي ـ على حد تعبيره الدائم ـ فأبتسم لسؤاله الذي ما من جواب لديّ عليه...

ثم تجهم قليلًا وتحدث عن رغبة كان يهرب منها طويلًا...

رغبة في أن يدرك كيف واتتني الجرأة أن ابلغ البوليس عني ومن معي بالبساطة التي كان عليها الأمر مني..؟؟

قلت له في غير تعمد لإثارته أو تجريحه.. إنه مثلما واتته الجرأة أن يذهب لنقطة شرطة المكس وفى يده السكين التي طعن بها صُنقر..

واتتني.. وإنه مثلما لم يكترث لأنه قتل نفسًا.. فأنا غير مكترث لما أقدمت عليه..

وليست الضجة التي صاحبت محاكمتي بالتي تجعلني أبدو كذلك.. تمامًا كما بدا هو..

الأمر له الأبعاد نفسها وإن اختلف السياق..

أومأ برأسه.. وأطرق قليلًا.. ثم أخبرني ما لم أتخيله بمكان.. قال:

تعرف.. أنا لم اقتل.. ولم أستعمل السكين في شيء..

تعلم أني حذرت حسن من مغبة التهور.. وطلبت منه ألا يفعل ما قد يهدر مستقبله ويضيعه..

ويضيعنا معه..

خرج لصُنقر في لحظته وتشاجر معه.. وكنت أنا بينهما.. لما ضربه حسن في جنبه وسقط خائر القوى..

أخذت من يده السكين فورًا..

وصرفته..

وقلت بكل ثبات في محضر التحقيق إنني من قتلت صُنقر.. كنت أخشى أن يضيع مني وليدي..

لكنه ابن الكلاب بمجرد أن حُكم عليّ في القضية..

سافر إلى حيث شاء..

لم تذهلني المفاجأة قط... الحياة أغرب مما نتصور منطقه أو ندعي القدرة على أن نمنطقه...

كان ما يهمني أنه يبكي.. أول مرة أبصره فيها يبكي في سنوات تعرفي عليه بالسجن..

وكان بكاؤه حارًا..

لكنه لم يلبث أن اجترّ ضحكة بسيطة.. لما أخبرته - متحايلًا على الموقف - أنني سأعيد إليه ابنه من سفره في جزء الفيلم الثاني..

سألني مدعيًا الجدية والاهتمام..

هل حقًا سوف يقوم عمر الشريف بتأدية دوره..؟؟

ثم أردف أنه لم يدخل السينما قط... لكن الأعوام الخمسة عشرة التي حكم عليه بها..

كفيلة بأن تجعله يرى الفيلم حين يعرض في التليفزيون: فيفخر وسط السجناء بما يقدم عنه..

لم أستطع مجاراة ضحكاته البائسة.. وحسدته على قدرته على البكاء التي كنت.. أفتقدها بشدة..

ودعته وانصرفت في صمت..

كنت أفكر وأنا واقفٌ بالركن المعتم وراء بوابة السجن الكبيرة؛ كم هو رجلٌ طيب ومسكين...

لكن فيلمه لن يرى النور أبدًا..

لا يمكن.. لي أو له... على أي حال..

لكن أقسى ما في السينما.. أن أناسًا لا يشعرون حتى بأنفسهم.. قد يبرعون

في التعبير عن غيرهم أمام العدسات..

ربما أكثر ممن هم في الواقع نفسه.. ويعانون منه.

كنت آسفًا..

وكنت كذلك متململًا من طول انتظار الباب أن يُفتح.. وثقل ما أحمله..

وتشاغلت عن كل ذلك فجأة.. حيث كانت الرغبة ملحة..

وكنت أتخيل نفسي وقد تهيأت للكتابة..

فكرة غامضة ونص غير محدد المعالم..

لكني أحلم به مبهجًا مهما كان محتواه..

أحلم بالسيناريو المكتوب بحرفة وعناية فائقة... والمنفّذ بدقة متناهية...

هذا ما كنت طامعًا فيه.. من دون أن أنتبه لصورتي وأنا أكتبه.. أو بعد أن أكتبه..

كان ذاته شغلي الشاغل..

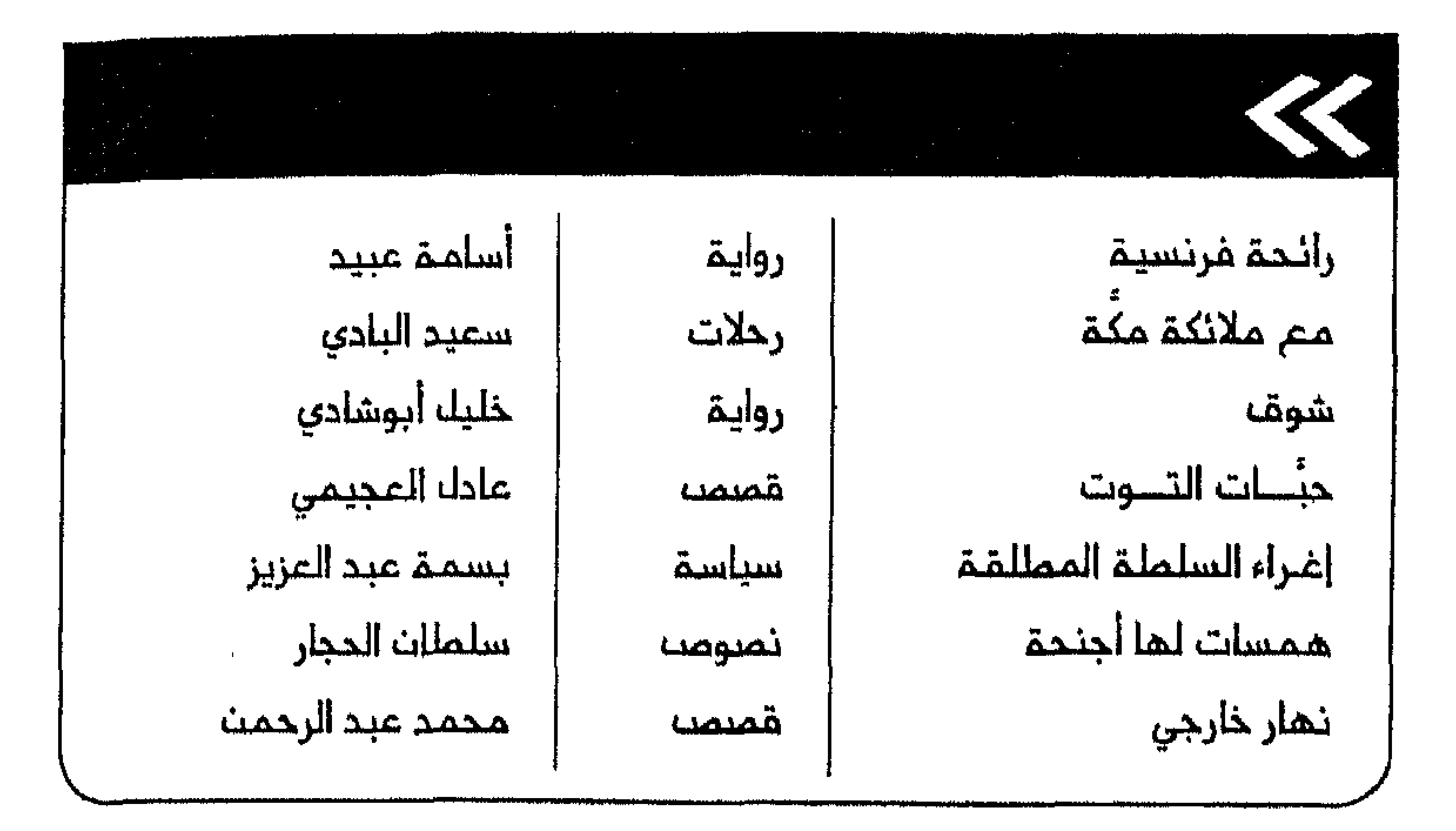
المشهد الأول

نهار خارجي.

صدر عن الدار

تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قطة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كمامي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الطلظ	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الآخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
آلة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القطط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية في الكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى د. محمد سعيد حسب النبي
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
الطريق إلى قصر العروبة	سياسة	محمد علي خير
الضريح	رواية	كرم صابر
موسم الفراشات الحزين	رواية	أسامة حبشي





رائحة فرنسية	رواية	أسامة عبيد
مع ملائكة مكة	رحلات	سعيد البادي
شوق	رواية	خليل أبوشادي
حبات التوت	قصص	عادل العجيمي
إغراء السلطة المطلقة	سياسة	بسمة عبد العزيز
همسات لها أجنحة	نصوص	سلطان الحجار
نهار خارجي	قصص	محمد عبد الرحمن

قيد الإصدار

صعود ليبرمان	تحليل	أكرم ألفي
عيّل بيصطاد الحواديت	كتاب شعري	مجدي الجابري
حرب بلا نهاية	سياسة	رالف بيتر
مرآة الشرق	تاريخ	مجموعة باحثين
حنين للضي	شعر	صبري فواز
ملك على الذكرى	شعر	أحمد كامل
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين

صفصافة
SAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com



خلع في صمت " أفرول" الأيام الطوال..

تركه مكانه على الأرض..

لم تكن هنالك من أشياء تخصه.. انصرف وحيدًا في سرعة..

جس من جديد لدى البوابة الكبرى جملة أصابع يسراه المبتورة.. وابتسم..

حتى الماكينة الكبرى التي بترتها طردت غير مأسوف عليها.. في ذلةٍ وانكسار..

سبقته..

Cover design by: Alaa Elnewehy



